

كنوز الملك سليمان

تأليف : رايدر هاجارد
إعداد : د. نبيل فاروق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

١ ـ المعبود ..

قصتى فى الواقع عجيبة وغريبة ، حتى أننى اتساءل ، وانا اخطها إليكم ، عما إذا كانت قابلة للتصديق ام لا ، فهى ـ على الرغم من حدوثها ـ تبدو أقرب إلى روايات الأساطير ، وخيالات الأدباء ، بكل ما تذخر به من احداث مثيرة ، ومواقف مدهشة رهيبة ، وبكل ما تحمله إلى مستمعيها وقرائها من روائح الشرق ، وغموض الأدغال والبرارى ..

ثم اننى لست بالبطل الأسطورى المقدام ، الذى يمكن ان تحاك حوله كل هذه المغامرات والأحداث ، فلقد ولدت فى (كمبرلاند) ، من اب مزارع ، اختار لنفسه زوجة من إحدى مقاطعات (ويلز) ، مما اورثنى حب الانتقال والأسفار ، وملأ عروقى بدماء المغامرة والمجازفة ..

ولا تجعل هذه المقدمة تبهرك ، او تحبس انفاسك ، او تدفعك إلى رسم صورة خيالية لى ، ابدو فيها ممشوق القوام ، مفتول العضلات ، وسيم الملامح ، فانا ـ على العكس ـ هزيل نحيل ، لى وجه يشبه وجه الجدى الأبيض ، إلى حد دفع المصريين إلى ان

يطلقوا على اسم (الجدى الأبيض) بالفعل ، عندما قضيت فترة اسيرا فى سجونهم ، بأمر خليفتهم ..

ثم إن عمرى الآن يناهز الخامسة والستين ..

ولكن دعونا نعود إلى قصتى ..

إننى طبيب من الطراز القديم ، الذى لم يكن يعتمد على طرق العلاج الحديثة ، ولم اكد ابلغ سن الشباب حتى رحت اغذى رغبتى فى الانتقال ، بالسفر إلى الشرق والغرب ، حتى استقر بى المقام فى (القاهرة) ، مع حلول عيد ميلادى الأربعين ، وفيها رحت امارس مهنتى ، وتصورت اننى ساكتفى بممارستها حتى آخر يوم من عمرى ، لولا ان التقيت بمستر (هيجز) ، عالم الآثار الشهير ..

ولهذا اللقاء قصة ..

لقد دعيت يوما لتوقيع الكشف الطبى عليه ، عندما أصيب بمرض التيفوئيد ، وعلمت انه واحد من اشهر علماء الآثار فى العالم ، وانه يتحدث ما يقرب من خمس عشرة لغة ، كما يمكنه قراءة اللغة الهيروغليفية بنفس البساطة التى يقرأ بها (جريدة التايمز) ، وانه قد انفق آخر قرش يمتلكه على بحوثه فى علم الآثار والتنقيب ، فلم اتردد فى معالجته مجانا ،

إلى ان شفى تماما ، وقامت بيننا صداقة وثيقة . خاصة وانه كان فى الثالثة والثلاثين من عمره ، اى ان الفارق السنى بيننا لم يكن كبيرا . .

وفى (القاهرة) ربطنى الحب والزواج بفتاة قبطية ، من إحدى اسر الصعيد ، وسليلة للفراعنة الأمجاد ، ونعمت معها بسعادة لا مثيل لها ، على الرغم من احتفاظها بطابعها الشرقى ، وانجبت لى ابنا واحدا ، ثم اصابها الطاعون اللعين ، فقضت نحبها ، وتركت لى الطفل ، الذى ابت الأقدار ان تترك لى لمحة من الحياة معه ، واصرت على ان تملأ كاس حزنى حتى حافته ، فاختطف رجال (المهدى) ابنى ، وحطموا ما تبقى من نفسى تحطيما . .

وبعدها سارت بى الحياة على نهج ثابت ، ووتيرة حزينة ، إلى ان فكرت يوما فى زيارة وطنى ، فسافرت إلى (لندن) ، واتجهت من فورى لزيارة مستر (هيجز) ، وهناك قادتنى خادمته إلى حجرة مكتبه ، حيث وجدت نفسى بين اكداس من التحف والمخطوطات والبرديات الفرعونية ، وصناديق احتشدت ببقايا مومياوات واجزاء بشرية محنطة ، ولم يكد (هيجز) نفسه يصل ، حتى بدا لى شبيها بتلك الأشياء ، وهو يرتدى معطفا ابيض اللون ،

اتسخ كثيرا باتربة وغبار العمل ، وقد وخط الشيب فوديه ، وبدا وكانما قد تسلل إلى عينيه الباهتتين ، وهتف وهو يصافحنى فى حرارة :

ـ يا للمفاجاة !.. (ريتشارد آدمز) بشحمه ولحمه !!.. اهو انت حقا ؟

ابتسمت وانا اصافحه قائلا :

ـ يلوح لى ان كلمة شحمه هذه تحمل الكثير من المبالغة يا صديقى ، والواقع أننى اردت مفاجاتك ، فاخبرت خادمتك اننى مجرد صديق ، ولم اذكر لها اسمى .

هتف :

ـ مرحبا بك فى اية لحظة يا صديقى .. دعنى اقدم لك صديقى الكابتن (اورم) .

صافحت الشاب الذى قدمه لى ، وهو ممشوق القوام ، عريض المنكبين ، وسيم الملامح ، هادىء الطباع ، يبدو فى الخامسة والعشرين تقريبا ، و (هيجز) يستطرد فى حماس :

ـ (اورم) هو أحد نوابغ اللغة العربية وعلم الآثار المصرية ، ولقد تطوع فى الجيش إبان حرب (البوير) ، واصيب ثلاث مرات .

تبادلت كلمات المجاملة مع (أورم) ، وانهمك

ثلاثتنا فى احاديث طويلة ، استعدنا خلالهـا بعض الذكريات ، انا و (هيجز) ، وتناولنا بعض الطعام والشراب ، ثم اشعل (هيجز) غليونه ، واسترخى فى مجلسه ، وهو يسألنى فى اهتمام :

- قل لى يا (آدمز) : لمـاذا عدت إلى الوطن ؟

اجبته فى بساطة ، وانا الوح بكفى :

- مجرد إجازة .

اعتدل فى حركة سريعة ، وانعقد حاجباه فى اهتمام بالغ ، وهو ينفث دخان غليونه ، متطلعا إلى خاتم كبير من الذهب ، يزينه فص من الياقوت الأزرق فى إصبعى ، وقد نقشت عليـه حروف قديمة ، فسألته :

- هل يروق لك ؟

أومأ برأســه إيجابـا ، ومد يده إلى ، فنزعت الخاتم ، ووضعته فى راحتـه ، وراح يفحصه فى اهتمام ، ثم سألنى :

- هل تعرف معنى تلك الحروف القديمة ؟

هززت راسى نفيا ، فقرأ الكلمات فى هدوء :

- هدية من (سليمان) الحكيم إلى (بلقيس) ، ابنة الملوك والحكمة والجمال .

ضحكت قائلا :

ـ يا له من تقليد طريف !! لقد ابتعت الخاتم من صائغ فى (القاهرة) ، بجنيه ونصف فحسب .

تطلع إلى فى شك ، مغمغما :

ـ اتعنى انه مجرد خاتم مقلد ؟.. لا .. يبدو لى انك تسخر منى فحسب ، وإلا فمن صنعه مثقف للغـاية ، حتى يخط عليه هذه النقوش العبرانيـة الدقيقة .

ران الصمت علينا لحظة ،ثم قلت :

ـ الواقع اننى قد حصلت عليه من سيدة تدعى (ام النجاشى) ، وهى تدعى انها حفيدة (سليمان) و (بلقيس) .

راح يفحص الخاتم مرة اخرى فى اهتمام ، ثم دسه فى احد جيوب صداره ، وابتسم قائلا :

ـ اهذه هى القصة كلها ؟

القيت نظـرة جانبيـة على كابتن (أورم) ، ثم اعتدلت قائلا فى حزم :

ـ انا مستعد لان اقص عليك القصة كلها ، بشرط ان يقسم كابتن (اورم) بالا يعيد كلمة واحدة مما سيسمع على اذن احد .

قال (اورم) فى هدوء :

- ثق اننى اهل لثقتك يا سيدى .

بعثت كلماته ولهجته الطمانينة إلى نفسى ، وبدات اروى لهما ، قائلا :

- حدث ان اعتقلنى خليفة (مصر) خمسة اعوام كاملة ، لخلاف بينى وبينه ، ولم يكد يطلق سراحى حتى سعيت للبحث عن ابنى (رودريك) ، الذى اختطفه رجال (المهدى) قديما ، ورحت اقضى عمرى متجولا فى صحارى (افريقيا) ، علنى اجد ولدى ، وقد باعه هؤلاء اوغاد كالرقيق ، إلى إحدى القبائل او احد التجار ، ولما كان ابنى موسيقيا موهوبا ، فقد كان تتبع خطواته امرا ميسورا ، ولقد علمت انه قد راح يتنقل من قبيلة إلى اخرى ، وقد اطلقوا عليه لقب (مطرب مصر) ، لإتقانه لغتهم ، والعزف على آلاتهم الوطنية ، وعلمت انه يستقر الآن وسط قوم من انصاف البرابرة ، يحملون اسم قبائل (الفنج) ، ويقيمون فى وسط (افريقيا) ، فتنكرت فى زى تاجر عربى ، وسافرت مع عدد من التجار إلى حيث (الفنج) ، وهناك تسلقت حائط احد معابدهم ، فى اثناء احد احتفالاتهم الدينية ، واستمعت إلى غنائهم .. ولسعادتى ميزت صوت

ولدى بينهم ، وتعرفته على الرغم من ثوبه الأفريقى ، والأعوام التى انقضت منذ فراقنا ، ولحظتها غلبنى انفعالى ، ودفعنى حنين الأبوة إلى ان اتناسى كل قواعد الحذر ، واصرخ مناديا باسم ابنى (رودريك) ، وهنا ساد الهرج والمرج ، ولمحنى بعض (الفنج) فى مخبئى ، وانطلق عـدد منهم نحـوى ، فغلبنى الجبن ، واطلقت ساقى للرياح ، ورحت اعدو بكل ما املك من قوة ، وقد ارتشق احد السهام بين كتفى ، غير مبال بزئير الأسـود فى الأدغال ، ولا بالأحراش المظلمة ، ولكن فجاة انقض اسد على جواد يجاورنى ، واصـابنى بالرعب ، وسـقطت فاقد الوعى .

بدا الانفعال واضحا فى صوت (هيجز) ، وهو يسألنى :

ـ وماذا حدث بعدها ؟

اجبته :

ـ استعدت وعيى بعد اسبوع كامل ، ووجدت نفسى ارقد فى شرفة واسـعة لمنزل انيق ، وإلى جوارى حبشية حسناء ، تعنى بجراحى ، وتداوى آلامى ، وعلمت فيما بعد ان (الفنج) قد انتقموا من قافلة التجار العرب ، الذين اندسـست وسطهم ،



استعدت وعيى بعد أسبوع كامل ، ووجدت نفسى أرقد فى شرفة واسعة لمنزل أنيق ..

واحرقوها عن آخرها ، وان هؤلاء الذين انقذونى من الأسد هم ابناء قبيلة (اباتى) ، التى تعيش فى مدينة (إلمور) ، وقد نالوا نصيبا موفورا من المدنية ، ويبلغ تعدادهم ما يقرب من العشرين الف نسمة ، وهم يحيون فى رعب دائم من (الفنـج) ، الذين يحملون لهم كراهية متوارثة ، ويمتلكون حصنا عجيبا جبليا ، ورثوه ايضا عن اجدادهم .

سـألنى (هيجز) ، وقد ملأت اللهفة حواسه كلهـا :

ـ ثم ماذا ؟

تنهدت قبل ان اقول :

ـ بذلت اقصى جهدى لحض (الأباتى) على إعداد حملة ضد (الفنج) ؛ لإنقاذ ولدى من العبودية والرق ، ولكنهم سـخروا منى ، واعلنوا رفضهم التـام لفكرتى ، فلم أجـد أمامى سـوى ملكتهم (مجيدة) ، ابنة الملوك والجمال والحكمة ، وتظاهرت بالاهتمام بصحتها كطبيب ، وأفضيت إليها بفكرتى ، فترددت طويلا ، ثم اخبرتنى ان لـ (الفنج) معبودا على هيئة (ابى الهول) ، ولكن راسه ليست على شكل راس إنسان ، وإنما هى راس كبش ضخم ، وهذا المعبود يدعى (هرمق) .

تمتم (هيجز) ، وهو يستمع فى اهتمام :
- هذا يعنى (إله الفجر) .
واصلت دون الالتفات إلى تعليقه :
- و (الفنج) يؤمنون إيمانا قاطعا بان تدمير هذا المعبود هو امر بالرحيل عبر نهر الجنوب العظيم .
سالنى (هيجز) فى اهتمام بالغ :
- اى نهر هو ؟
اجبته فى اهتمام مشابه :
- لم تذكر اسمه ، ولكنه احد روافد نهر النيل حتما ، او احد فروعه .. المهم اننى قد اقترحت عليها السعى لهدم ذلك المعبود ، فضحكت واخبرتنى انه شديد الضخامة ، فى حجم جبل صغير ، وليس من الهين هدمه بالأيدى ، ثم إن رجالها قد فقدوا الكثير من شجاعتهم وبأسهم ، وانهم قد استكانوا للعيش فى ارضهم الخصبة ، حتى يوافيهم الأجل وتطوى صحائفهم ، ولما سالتها عما إذا كانت هى قانعة بكل هذا الخضوع والخنوع ، اجابتنى بان الحزن يملأ قلبها وعقلها ، ويؤرق نومها ، ولكنها على اية حال امراة ، لا حول لها ولا قوة ، ثم حاولت قلب الأمور ، فراحت تغرينى بكنوز اجدادها المخبأة ، وتعدنى بجبل من الذهب والمجوهرات ، لو اننى

سعيت لهدم ذلك المعبود ، فأجبتها بأننى زاهد فى المال والثروة ، وكل ما أرغب فيه هو إنقاذ ولدى ، الذى يحيا كعبد بين (الفنج) ، فأصرت على موقفها ، وعلى انها لن تبذل جهدها أو رجالها فى سبيل استعادة ولدى ، قبل ان يتم هدم ذلك المعبود ، وهنا رحت اشرح لها فوائد الديناميت ، وقوته ، وتأثيره ، وخواص غيره من المتفجرات ، فهتفت فى حماس ، تطالبنى بالعودة إلى بلادى ، وإحضار المواد اللازمة لهدم ذلك المعبود ، واثنين أو ثلاثة لمعاونتى ، وستمنحنى كنوز الأجداد كلها ، وتساعدنى فى استعادة وحيدى .

سألنى (أورم) :

ـ وماذا فعلت ؟

أكملت أنا :

ـ منحتنى الملكة (مجيدة) الكثير من الذهب ، وعددا من الرجال والجمال ، وسلكنا دروبا خفية ، لا يعلم عنها (الفنج) شيئا ، وقطعنا عدة أميال فى الصحراء ، حتى بلغنا (أسوان) ، وهناك تركت الرجال والجمال منذ أسبوعين ، وهرعت إلى هنا ، لمعرفتى بمدى شغف صديقى (هيجز) بالآثار القديمة ، وأردت أن أمنحك ، إلى جوار الثروة ،

فرصة لتكون اول من يكشف مدنيات قديمة ، ضاعت فى غياهب المجهول ، وكل ما اطلبه الآن هو ان نجد رجلا خبيرا فى المفرقعات ، يأخذ على عاتقه مهمة هدم معبود (الفنج) .

ابتسم (هيجز) ، واشار بطرف غليونه إلى كابتن (اورم) ، قائلا :

ـ الأمر اسهل مما تظن ، فها هو ذا كابتن (اورم) ، مهندس وكيميائى ، وخبير مفرقعات ، إلى جانب إجادته التامة للغة العربية منذ صباه .

تطلعت إلى الكابتن ، اسأله :

ـ هل ترضى بإقحام نفسك فى مثل هذه المخاطرة ؟

هز كتفيه ، مجيبا فى هدوء وبساطة :

ـ ليس لدى الآن ما يمنعنى من هذا .

سألته :

ـ ماذا تعنى بكلمة (الآن) ؟

تضرج وجهه بحمرة خفيفة ، لم تلبث ان تلاشت فى سرعة ، وهو يجيب :

ـ الواقع اننى كنت اتصور ، حتى امس فقط ، اننى قد ورثت ثروة عظيمة ، من عم لى ، توفى فى

جنوب (افريقيا) ، واليوم علمت انه كان قد تزوج من امراة ادنى منه مرتبة ، على نحو سرى ، وانجب منها ولدا ، هو وريثه الشرعى ولا شك ، ولكن هذا ليس السبب الوحيد لرغبتى فى ترك (إنجلترا) ، وإنما السبب الحقيقى هو ان المراة التى تصورت انها تحبنى ، واننى ساصبح زوجا لها ، قد صارحتنى اليوم بانها لن تتزوج ضابطا متقاعدا ، ضاع امله فى ميراث عمه .

بدا لنا الموقف حساسا ، فلم ننطق انا و (هيجز) بتعليق واحد ، احتراما لمشاعر الشاب ، الذى صمت بدوره ، فران على المكان صمت رهيب ، قطعه (هيجز) اخيرا فى صوت مرتفع ، وكانما يدير دفة الحديث بعيدا عن موطن احزان (اودم) :

ـ ما غرضك الحقيقى من هذا يا (آدمز) ؟

اجبته فى الم وانفعال :

ـ حاول ان تضع نفسك فى مركزى .. تصور ان ابنك الوحيد سجين مع قوم غلاظ النفوس ، قساة القلوب وانك قد عثرت عليه ، بعد ان نضج واشتد عوده ، فهل تتركه عبدا بينهم .

ـ اتنقذه بتعريض رقبتك للسيف ؟

ـ الابوة يا صديقى غريزة لا تقهر ولا تقارن ، ثم إن (مجيدة) قد وعدتنى بالمساعدة والمال ، ولما صارحتها بأن احدا لن يصدق قصتى ، منحتنى خاتمها للدلالة على صحة القصة ، ومنحتنى الذهب لشراء المال والعتاد ، وسألتنى الا يزيد عدد معاونى على ثلاثة ، فهل ترغب فى ان تكون احدهم ، ام ابحث عن غيرك ؟

تطلع إلى فى صمت ، وهو يشعل غليونه ، وينفث دخانه فى بطء ، ثم لم يلبث أن مال إلى الأمام بغتة ، وسألنى :

ـ الديك بعض الذهب الذى منحتك إياه ملكة (الاباتى) ؟

قلت وانا افتح حقيبتى الصغيرة :

ـ ها هو ذا .

ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه أن شكوكه قد تبددت ، وهو يقول لـ (أورم) :

ـ ما دام يحتاج إلى ثلاثة معاونين ، فلم لا نصطحب الجاويش (كويك) ؟

ثم التفت إلى مستطردا :



ناولته بعض الذهب ، ففحصه فى اهتمام ، وبدا على ملامحه أن شكوكه قد تبددت ..

ـ إنه معاون الكابتن ، منذ كانا معا فى الجيش ، وهو خبير الغام ومتفجرات ، ولقد كان ميكانيكيا قبل الحرب ، ثم إنه مخلص كتوم ، متين البنيان .

وبسرعة ، استدعى (اورم) الجاويش (كويك) ، الذى بدا لى واضح القوة والبأس ، وساله الكابتن :

ـ ما رايك فى رحلة إلى وسط (افريقيا) يا (كويك) ؟

ضرب (كويك) كعبيه بعضهما ببعض ، شأن اى جندى محترف ، واجاب :

ـ لا راى لى يا سيدى .. إننى اذهب حيث يامر رئيسى ، ثم إن المتفجرات هى ابسط الأشياء التى اجيدها .

اصابتنا الدهشة ، وهتف (اورم) يساله :

ـ كيف علمت هذا ؟

اجاب دون حتى ان يبتسم :

ـ ابواب المنازل القديمة هشة غير متماسكة يا سيدى ، وصوت مستر (آدمز) ليس من الأصوات التى تحجبها الجدران .

انفجرنا ضاحكين ، وقال (اورم) :

ـ إذن فلست تمانع فى مرافقتنا .. هل تدرك ما ستتعرض له من مخاطر واهوال ، وما ستواجهه من احتمال عدم العودة مطلقا ؟

هز (كويك) راسه فى بساطة ، وقال :

ـ ليس احب إلى نفسى من المغامرة ، ثم إننا سنبحث عن ثروة ، وكل ما اطلبه هو أن احصل على خمسة فى المائة منها ، لو عثرنا عليها .

هتفت فى حماس :

ـ خذ عشرة فى المائة .

اجاب فى هدوء :

ـ تكفينى خمسة فى المائة يا سيدى ، ويمكننا ان نحرر عقدا بهذا ..

وبالفعل تم تحرير العقد ..

وبدات المغامرة ..

***

٢ ـ القط ..

ستة أسابيع مضت ، ونحن نسير فى لجة لا تنتهى من الرمال الصفراء ، التى لم تطأها قبلنا حتى قوافل البدو الرحل ، والشمس تشرق كل صباح بضوئها الأحمر من خلف التباب الشرقية ، وتختفى فى المساء خلف الكثبان الغربية ، ليصعد القمر ، ويغمر بحر الرمال بضوئه الفضى الساحر ..

واخيرا بدا لنا ذلك الجبل ، الذى هو معبود (الفنج) ، الذى يواجه مدينتهم (هرمق) ، التى لا يتجاوز تعداد سكانها الخمسين الف نسمة ..

واخبرنا (القط) ، قائد قافلتنا ، أن للجبال المحيطة بالمدينة مدخلا واحدا ، على مسيرة ثمانية أيام إلى الشمال ، وانه لا سبيل لبلوغه هذه الأيام ، حيث تعترضه ـ فى هذا الوقت من السنة ـ بحيرة كبيرة ، يفيض منها نهر (أيبور) ، ويتفرع إلى فرعين ، يحيطان بسهول (الفنج) كلها ، ولكن هناك وسيلة أخرى لبلوغ المعبد المقام على صخور شامخة ، الا وهى ان نترك الجمال والأحمال ، ونتسلق الجبل ..

وكان هذا مستحيلا ..

ولم يكن من المجدى ان نبلغ ذلك المعبود ، مخلفين وراءنا كل ما أحضرناه لتدميره ؛ لذا فقد سألت (القط) فى اهتمام :

- ما العمل إذن ؟

هز كتفيه فى لا مبالاة ، واجاب :

- ليس امامنا سوى ان نسير ليلا ونختفى نهارا ، فمن عادات (الفنج) انهم سيقيمون حفلا رائعا للربيع فى مدينتهم غدا ، ومع الفجر ينتقلون إلى معبدهم ؛ لتقديم القرابين لمعبودهم ، وهم يرفعون الحراسة فى تلك الساعات ، ليشاركهم الحراس احتفالاتهم ؛ لذا فالوسيلة الوحيدة هى أن نبلغ اول طريق (المور) ، مع ليلة الاحتفال بعيدهم ، وسأخبر رجالى ؛ لإرسال من يرشدنا إلى الطريق وسط الظلام .

- وكيف يمكنك إبلاغهم ؟

- بإشارات الدخان . . سأحرق بعض الأعشاب ، وسيتصور (الفنج) أنها نيران أحد صيادى المنطقة .

- أليس فى ذلك مجازفة كبيرة ؟

- مجازفة ؟!! . . عجبا !! . . ما كنت أظن الإنجليز جبناء هكذا .

وهنا انفجر (هيجز) غاضبا :

– جبناء ؟!.. كيف تجرؤ على هذا القول ايها القذر .. انظر إلى هذا الجاويش .. إنه خادمنا ، واقلنا شأنا ، ولكن ما بإصبعه الصغير من شجاعة يفوق ما تحمله منها قلوب قبيلتك كلها .

احتقن وجه (القط) غضبا ، ورفع راسه قائلا فى غلظة :

– انت تنطق هراء يا (هيجز) ، ولكن قولك هذا سيتغير كثيرا ، عندما تجد سيف (الفنج) فوق عنقك .

كاد (هيجز) يشتبك معه فى حوار عنيف ، إلا ان (اورم) تدخل قائلا :

– كفى .. اظن ان لدينا من المتاعب ما يغنينا عن المزيد منها .

ثم التفت إلى (القط) مستطردا :

– لا داعى للشجار يا رجـل .. إنك قائدنا فى ساعات السلم ، وانا القائد عندما يحتدم القتال ، ونحن نسلمك قيادنا الآن ، فقدنا اينما وحيثمـا شئت ، وسنتبعك على الرحب والسعة .

ظهر الارتياح على وجه (القط) ، وكانما اعادت

إليه كلمات (اودرم) كرامته ، فى حين راح هذا الاخير يطمئن على الإبل والجياد ، وذهبت انا و (هيجز) و (كويك) إلى خيامنا ، فى محاولة منا لاختلاس قدر من النوم ، قبل ان تهاجمنا اسراب البعوض اللعينة ، وقبل ان انعم بقدر كاف من النوم ، جاء الجاويش (كويك) ليوقظنى مع مغيب الشمس ، وليساعدنى على حزم امتعتى ، ووجدته يقول فى قلق :

ـ لست أثق عادة فى القط الذى يبرز مخالبه هكذا ، فذلك الرجل يبدو لى ماكرا خبيثا ، يكره البيض ، ويتمنى لو نهلك قبل عودتنا من (المور) .

كان هذا شعورى ايضا فى الواقع ، إلا اننى رحت اعمل على تهدئة (كويك) ، وانطلقنا جميعا نقطع طريقنا تحت جنح الظلام ، حتى بلغنا خرائب المدينة المهجورة ، المطلة على الهاوية ، تحت صخور (المور) ، مع تباشير الفجر ، فحططنا الرحال ، وجلسنا نستريح ، وعندما اعتلت الشمس متن السماء ، امكننى رؤية مدينة (هرمق) العظيمة ، بمنظارى المقرب ، على بعد خمسة عشر ميلا .

كانت مدينة كبيرة ، منازلها كثيرة ، ذات اسقف بيض ، تحيط بها الحدائق من كل جانب ، وشوارعها واسعة ، واسواقها فسيحة ، وحول المدينة جدار

عال ، ترتفع فى اركانه ابراج عالية ، وبينها بوابات كبيرة ، وحول الجدار مراع ينبت فيها العشب الأخضر ، وتنتشر فيها قطعان الماشية والأغنام والجياد ، وعلى مقربة منها ما يشبه مدينات او قرى صغيرة ، من المستحيل ان يشيدها او يقطنها الهمج او البرابرة ..

وبقينا فى اماكننا ، ننتظر قدوم الليل ، لنكمل مسيرتنا نحو ارض (الفنج) ، ورحت اراقب (القط) ، وانا اتذكر حديث (مجيدة) عنه ..

قالت : « لا تخلو نفسى من الشك فى امره ، ولكننى استغل فيه دهاءه ومكره وجراته ، وعليك ان تتخذ كل الحذر منه ، فلست اطمئن إليه إلا لأننى احتفظ بزوجته واطفاله رهينة عندى ، واعده بمكافأة ضخمة مغرية ، لو ساعدكم على هدم معبد (الفنج) » ..

تذكرت كلماتها وانا اتطلع إلى وجه (القط) ، الذى يحمل كل ما يثير القلق فى النفوس ، حتى ان كلبنا الوديع (فرعون) كان يكرهه ، وينبح فى وجهه دوما ، بل لقد حاول مرة ان يغرس أنيابه فى ساقه ، فبادله (القط) الكراهية ، ولم تكد علبة سم (الاستركنين) تقع فى يده ، حتى غمس فيها قطعة من اللحم ، والقاها إلى (فرعون) ، الذى كاد يلتهمها

بالفعل ، لولا أن شك (هيجز) فى ذلك التعـاطف المباغت ، فاسرع يفحص قطعـة اللحم ، ولم يكد يدرك مقصد (القط) حتى نشبت بينهمـا معركة بالأيدى ، كادت تنقلب إلى معركة طاحنة بيننا وبين رجال (القط) ، لولا أن تدخل الكابتن كالمعتاد ، وانهى الصراع ، وجعلهما يتصافحان ، ولكننى ظللت واثقا من أن نفس (القط) لم تهدأ تجاه (هيجز) ، وأن حقده عليه سيتضاعف مع مرور الأيام ..

توقفت عن اجترار الأفكار والذكريات مع مقدم الليـل ، حيث عاودنا السير ، يتقدمنا دليـل من (الأباتى) ، يحفظ كل شبر فى الطريق ، وبعده كابتن (أورم) والجاويش (كويك) ، يقودان الإبل المحملة بالمفرقعـات والمتفجرات ، وأنا خلفهما للمراقبـة والحراسة ، وخلفى جمال القافلة الأخرى ، ثم فى المؤخرة يسير (هيجز) و (القط) ، بصحبة اثنين من (الأباتى) ..

ولقد أصر (القط) على السير فى المؤخرة ، حتى لا تنسب إليه أية اخطاء قد نقع فيهـا ، وصحبه (هيجز) ، ليدلل على صفاء نيته وطيب طويتـه تجاهه ..

وفجأة هطلت الأمطار فى عنف ، وراحت الرياح

تزار وتعوى ، إلا اننا لم نتوقف وإنما واصلنا سيرنا فى إصرار وصمت ، طيلة ثلاث ساعات ، حتى واجهتنا اضواء (هرمق) ، وسمعنا همسا يدعونا للتوقف ، ثم لم نلبث أن تبينا ان صاحبه هو أحد الوطنيين من (الإباتى) ، الذين ارسلهم (القط) لاستطلاع الطريق ، وقد عاد ليخبرنا ان عددا من فرسان (الفنج) يسدون الطريق ، وانه من الضرورى ان نتوقف قليلا ، حتى ينتقلوا إلى مكان آخر ، ويفسحوا لنا السبيل ..

واتجه (القط) إلى المقدمة ، ليستطلع ما حدث ، ولم يكد كلبنا (فرعون) يشتم رائحة عدوه ، حتى انطلق ينبح فى شراسة ..

وانطلق (القط) يعدو ..

واضطربت الجمال لعدوه ، وانطلقت تعدو بدورها ..

وجفل قادة الجمال ، عندما رأوا (القط) يقفز فوق أحد الجمال ، ويركض به هاربا ..

وهنا التفت إلينا فرسان (الفنج) ..

وهبط قلبى بين ساقى ، عندما رأيتهم يرفعون مشاعلهم ، ويتجهون إلينا ..

وكانت لحظات مخيفة ..

***

لم ندر كيف فعلنا كل هذا ..

لقد قفزنا كلنا فوق ظهور الجمال ، وتركناها تعدو بنا بسرعة البرق ، دون ان نحدد هدفنا او اتجاهنا ..

لا ريب ان الذعر ، ذلك الذى جعلنا نفعل كل هــذا ..

إنه اقوى محــرك لمن هــو فى مثــل موقعنا او ظروفنا ..

المهم ان الجمال راحت تعدو مبتعــدة ، ونحن نسلمها قيادنا تماما ، حتى خفت سرعتها ، إلى ان راحت تسير تحت قباب عالية ، وتوقفت كلها فجاة ، فهبطنا عن ظهورها ، وربطنــا بعضها إلى بعض ، واوينا إلى برج عال ، نتقى به الأمطار الغزيرة ، وقد اطمانت قلوبنا إلى ان مطاردينا قد فشلوا فى تتبع خطانا ، فتراجعوا إلى مواقعهم ..

لحظتها كشفنا اختفاء (هيجز) ..

واصابنا هذا بالذعر ..

إننا لم نلحظ هذا ونحن نعدو هاربين ، ولم ننتبه حتى إلى ما حدث ..

هل تبع (القط) فى فراره ، ام فشل فى اعتلاء جمله مثلنا ، فأوقع به فرسان (الفنج) ؟!

حرنا فى البحث عن الجـواب ، وغلبنـا الحزن والنوم ، فرحنا فى سبات عميق ، لم نستيقظ منه إلا عند الفجر ، فوجدنا ان الأمطـار قد انقطعت ، وكشفت السماء الصافية ، التى تتالق فيها بقايا النجوم ، التى يبدو ضوء الشفق بريقها تدريجيا . .

ورفع كابتن (اودم) راســه إلى اعلى ، وهو يقول :

– تعالوا نستكشف ذلك المكان ، ونصعد فى هذا الدرج هناك .

رحنا نصعد فى درجات السلم المرتفع ، حتى وجدنا انفسنا على قمة احد ابراج سور مدينة (هرمق) ، نطل على واد فسيح يتوسطه تمثـال حيوان بالغ الضخامة ، يشبه تمثال (ابى الهول) ، ووجـدت نفسى اهتف فى انفعال :

– إنه معبود (الفنج) .

غمغم (أودم) فى حزن :

– كم اتمنى لو اننى انا الذى لقى مصرعه ، بدلا من (هيجـز) ، حتى لا يحـرم رؤية ذلك الاثر الهائل .

وصمت لحظات ، ابتلع خلالها حزنه ، قبل ان يضيف :

ـ هيا نهبط ، فقد يمكننا الفرار ، قبل ان ينقشع ضباب الفجر .

أجبته فى انفعال :

ـ انتظر .. انظروا إلى تلك الصخرة هناك .. تلك التى تربض فوقها النسور ، والتى يحيط بها الضباب .. إنها الصخرة البيضاء ، التى قال (القط) إنها بداية سلسلة الجبال ، التى تنتهى فى (المور) .. هيا نتجه إليها ، فقد يكون هذا هو فرصتنا الوحيدة للنجاة .

هبطنا إلى حيث تركنا الجمال ، ورحنا نفحص أبواب جدار (هرمق) الضخم ، ووجدناها من النحاس والبرونز ، وقد علاها الصدأ ، وهى مغلقة من الداخل ، وبها فجوات منتظمة ، يستخدمها ـ ولا شك ـ فرسان (الفنج) ، فى إطلاق سهامهم على الأعداء ..

وانحنيت لألقى نظرة عبر إحدى الفجوات ..

ثم تراجعت فى رعب ..

لقد كان هناك بعض فرسان (الفنج) ، يندفعون نحونا ، والشر يطل من عيونهم ، فصرخت مذعورا :

ـ الفرسان يهاجموننا .

انطلقت أعدو نحو الجمال ، فى حين راح (أودم) و (كويك) يصليان فرسان (الفنج) نيران بندقياتهما ، حتى سقط نصف الفرسان صرعى ، وفر النصف الآخر ، إلا اننا لم نلبث ان فوجئنا بفريق آخر من الفرسان ، يعتلى الأسوار ، ويهاجمنا مطلقا علينا السهام فى شراسة ، فقال (كويك) فى حزم :

– اتركوا لى امرهم .. سألقن هؤلاء الأوغاد درسا .

قالها وتسلل كقط حذر نحو الأسوار ، ورأيته يدس أحد ألغامه فى قاعدة السور ، ثم يتراجع فى خفة ، هاتفا :

– أسرعوا .

لم يكد يتم عبارته ، حتى دوى انفجار رهيب ، وسقط بعض (الفنج) قتلى ، فى حين جفلت جياد البعض الآخر ، وراحت تعدو متراجعة ، فى حين انطلقنا نحن على ظهور الجمال ..

وصاح أحد (الأباتى) فى ذعر :

– إنهم يطاردوننا ..

التفت لأجد فريقا من (الفنج) يطاردنا ، ولم أكد أعتدل حتى رأيت جيشا من الفرسان ينقض علينا ..

لقد وقعنا بين المطرقة والسندان ..

وهوى قلبى رعبا ويأسا ، لولا أن هتف كابتن (أورم) :

ـ يا إلهى !.. هؤلاء الذين أمامنـــا ليسوا من (الفنج) .

أسرعت أضع منظارى المقرب على عينى ، وأتطلع إلى حيث يشير ، فوقع بصرى على أعلام (الأباتى) الخضراء ، وعليهـــا تلك الكتابات العبرانية ، التى تتوسطها صورة عرش (سليمان) ..

وأسرعنا نحو فرسان (الأباتى) ، ولم نكد نبلغهم حتى برزت من بينهم امرأة فى نقاب أبيض ، وثوب ناصع البياض ، وسألتنى بلغتهم :

ـ من القائد هنا ؟

أشرت إلى (أورم) ، الذى يكاد يسقط من فوق جمله ، من شدة الإجهاد والإعياء ، فخاطبته فى لهجة تشف عن أصلها النبيل :

ـ ماذا حدث يا سيدى ؟

سألها فى حزم :

ـ هل لى أن أعلم أولا من أخاطب ؟

رفعت رأسها فى اعتزاز ، وهى تقول فى ترفع :

ـ أنا الملكة (مجيـــدة) ، ابنة الملوك والحكمـــة والجمال ، وشعارى على جبينى ينطق بصدقى ..

ورفعت النقاب عن وجهها الفاتن الساحر ..

وتراجع (أورم) مبهوتا ..

بل مشدوها ومسحورا ..

لقد رأى امامه حورية من حوريات الجنة ..

رأى حفيدة (سليمان) ..

***

٣ ـ السلطان ..

يمكن القول ، دون ادنى قدر من المبالغة : ان (مجيدة) قد سحرت (أورم) تماما ..

لقد رايته وقد نسى كل تعبه وإجهـاده ، وهو يحدق فى وجهها الفاتن ، وجمالها الطاغى ، قبل ان يتمتم مبهورا مشدوها :

ـ اانا فى حلم ؟!.. آمـراة هى أم حورية من حوريات الجنة ؟

سالتنى (مجيدة) فى حيرة :

ـ ماذا يقول صاحبك ؟

ترجمت لها حديثه بكل أمانة ، فتضرج وجهها بحمرة الخجل ، واسرعت تسدل النقاب على وجهها فى حياء ، فتنحنح الكابتن حرجا ، واعتدل قائلا فى حزم ، بدا وكانه محاولة للسيطرة على مشاعره :

ـ يجب ان نعجل بالهجوم على (الفنج) قبل ان يستعيدوا جاشهم .

ولكن (مجيدة) اجابته فى هدوء ، باللغة العربية التى يجيدها (اورم) :

ـ يجب أن أستشير مجلسى اولا .

ثم التفتت مستطردة فى لهجة آمرة :

- اين عمى الأمير (جوشيا) ؟

وتقدم نحوها فارس شـاب ، متين البنيـان ، يرتدى حلة شرقية ثمينة ، ودرعا وخوذة كفرسان الغرب ، وسالته (مجيدة) :

- لقد تهدم جزء من السور كما ترى ، افتجدها فرصـة مناسبة لغزو (الفنج) ، ام انه علينـا ان ننتظر ، حتى يهاجمونا هم .

حدق فى وجهها بدهشة ، وهتف مستنكرا :

- هل اصابك الجنون يا ابنة الملوك ؟.. إننـا لا نزيد على خمسمائة رجل ، اما هم فعددهم يربو على العشرة آلاف .

هتفت غاضبة :

- ولكننى ارغب فى مهاجمتهم ، فمن يتبعنى ؟

صاح بعض رجالها يؤيد قولها ، إلا انها اضافت فى مرارة :

- يؤسفنى الا استطيع هذا فعلا ، فرجالى لم يخلقوا للحرب والقتال .

سرت همهمة غاضبة بين رجالها ، واستل عمها سيفه ، هاتفا فى صوت جهورى :

ـ انت تعرفين مدى شجاعتى وجراتى ، وتعلمين كم قتل هذا السيف من (الفنج) و . . .

قاطعه (اورم) فى صرامة :

ـ اعد سيفك إلى غمده يا رجل .

بدا العناد على وجه الرجل لحظة ، لولا ان ظهر ثلاثة من فرسان (الفنج) يتجهون إلينا ، وقد اخفى احدهم وجهه بقناع ابيض ، به ثقوب للعينين والفم ، فتراجع (الاباتى) فى خوف وقلق ، فى حين بقيت (مجيدة) قوية متماسكة ، وهى تقول فى حزم :

ـ إنهم رسل (الفنج) دعنا نر ماذا يريدون .

اقبل الفرسان الثلاثة ، حتى توقفوا امامنـا ، والقوا علينـا التحية فى ادب واحتـرام ، ثم قال احدهم :

ـ لقد اتينا يا (ام النجاشى) وابنة (سليمان) ، لنتحدث إلى البيض الثلاثة ، الذين قتلوا العديد من رجالنا ، وهدموا أحد أسوارنا ، وارسلوا البرق والرعد إلى صدور فرساننا .

سألته (مجيدة) فى ترفع :

ـ ماذا تريدون منهم ؟

اجابها :

ـ لقد سقط رابعهم اسيرا لدينا ، وحكم عليه كهنتنا بالموت ، ولكننا مستعدون للإبقاء على حياته ، كما فعلنا مع (مطرب مصر) وكاهن (هرمق) ، مقابل ان ينضم البيض الثلاثة إلينا ، لا إليكم .

قال (اودم) فى حزم :

ـ إننا نشكر سلطانكم على عرضه هذا ، ويؤسفنا ان اضطررنا لقتل عدد من رجاله ، دفاعا عن انفسنا ، ونحن نعترف بأن (الأباتى) قوم جبناء ، ولكن ملكتهم إمراة عظيمة ، كبيرة القلب ، ولقد وصلنا هنا على متن جمالها ، وبغرض خدمتها ، وهذا يضطرنا لرفض عرض سلطانكم ، مع عظيم الأسف .

هز الرجل راسه متفهما ، عندما استمع إلى رد (اودم) ، ثم التفت إلى (مجيدة) يقول :

ـ سلطاننا العظيم (بارونج) يوجه إليك الدعوة نفسها ، وانت تعلمين ما يحمله لك من احترام وتقدير وتوقير ، وهو يدعوك إليه على الرحب والسعة ، ويعدك بأن يضمك على راس زوجاته ، او يترك لك حرية الزواج بمن تشائين .

قال عبارته الاخيرة ورمق (اودم) بطرف خفى ، وكأنما يعنيه بها بالذات ، قبل ان يتابع :

- اتركى قومك الجبناء وانضمى إلينا ، يفتديك رجالنا بارواحهم ، فلقد اديت واجبـك على خير ما يرام ، ولولاك لصار شعبك ملكا لنا منذ سنوات ، ونحن نعلم انك قد لجات إلى هؤلاء البيض ؛ ليهدموا معبودنا بسحرهم ، بعد ان وعدتهم بكنوز وذهب ملوكنا الاقدمين .

سالته (مجيدة) فى خفوت :

- من اخبرك بهذا ؟.. اهو اسيركم الأبيض ؟

هز الرجل راسه نفيا فى هدوء ، وقال :

- لا يا (ام النجاشى) ، بل هو (القط) .. والآن ما جوابك يا زهرة (المور) ؟

اعتدلت (مجيدة) فى مجلسها ، فوق صهوة جوادها ، وبدت لى على ما اروع ما تكون ملكة ، وهى تقول فى حزم :

- لقد اقسمت بشرفى ان احمى (المور) حتى النهاية .

ابتسم الرجل وقال :

- لن تحنثى بشرفك يا زهـرة (المـور) .. سينقى ملكنا هذه المنطقة من الجبناء ، ثم يوليك عليها مرة اخـرى ، فتصبحين ملـكة على ارض تتيهين ببسالة فرسانها .

وفجأة رفع الفارس المقنع قناعه ، والقـاه على الارض بحركة سريعة ، وبدت ـ لأول مرة ـ اساريره النبيلة ، وبشرته النحاسية ، ووجهه الذى يشف عن سنوات عمره المقاربة للخمسين ، وقد اطلق لحيته ، وتألقت قلادة فرعونية قديمة على صدره ، فترجل الفارسان الآخران عن جواديهمـا ، وسجدا امامه هاتفين :

ـ (بارونج) .. (بارونج) .

وامام فيض الهيبة المتدفق من الرجل ، لم نملك إلا ان نحييه فى احترام بالغ ، ولم يسع (مجيدة) سليلة الملوك إلا ان تنحنى له ، فرد تحيتنا برفع رمحه فى عظمة وهيبة ، قبل ان يقول :

ـ لقد سمعت يا (أم النجاشى) و (زهرة المور) ويا رجال الغرب ما قاله خادمى بأمر منى ، ويؤسفنى مطـاردة رجالى لكم ، فمـا يليق بفرقة كاملة من الفرسان ان تطارد اربعة رجال ، ولكننى امد لكم يدى ، وارجو سـليلة الملوك ان تقبل صداقتى ، فلست احب أن اتورط فى مقاتلة جيش ضئيل من الرعاديد ، لا يستحق سوى الازدراء او الشفقة ، وإلا فإننى سـأنتقم لهدم معبـدى ومعبودى شر الانتقام ، وسيكون الأسير الأبيض كبش الفداء .

ضربت (مجيدة) مقدمة سرجها بقبضة يدها ، وصاحت :

ـ محال يا (بارونج) .. لن اخضع لكم واعبد معبودكم ، متخلية عن دينى الحق ، الذى آمن به (سليمان) وحفدته .. إنه من المستحيل ان تخضع عقيدة حقة لصنم قد من حجر ، اما رعيتى ، التى اعترف بجبنها وخنوعها ، فإننى افضـــل لها موتا شريفا ، على حياة هى الرق والعبودية والجحيم ، وانتقامك لمعبودك لا يهمنى أو يردنى ، ما دمت احطمه فى سبيل الله (سبحانه وتعالى) ، خالقى وإلهى .. واذبحنى لو ان هذا قدرى .

وصمتت لحظة ، ثم اضافت فى حزم :

ـ هذا جوابى كملكة لشعب يدين لها بالولاء ، اما كامراة ، فانا اشكر لك عواطفك وادبك الجم .

ران الصمت لحظات ، ثم سالها السلطان :

ـ اهذا جوابك النهائى ؟

رفعت راسها فى اعتزاز ، وهى تقول :

ـ نعم .. وبقى ان اعلن هؤلاء الأصدقاء البيض اننى احلهم من وعدهم ، فلا معنى لأن يلقوا بايديهم فى التهلكة ، فى سبيل حرب خاسرة ، واذكرك بانك

قد ضمنت لهم الحرية والإبقاء على حياتهم ، لو انضموا إليك ، وكذلك على حياة زميلهم الرابع ، الذى تحتفظون به اسيرا ، ثم إن لديك اسيرا آخر ، تطلقون عليه اسم (مطرب مصر) ، هو فى الواقع ابن احدهم ، ولست اظنك تضن بالولد على والده .

توقفت منتظرة جواب السلطان ، ولكنه بقى صامتا ، يتطلع إليها ، فالتفتت إلينا مستطردة :

- اذهبوا إليه ايها الاصدقاء ، واشكر لكم رحلتكم الطويلة من اجلى ، وسارسل لكم هدية ضخمة من الذهب ، وربما التقينا فى حرب قريبة .. الوداع ايها الأصدقاء .

كان من الواضح انها ترقبنا من خلف نقابها فى اهتمام شديد ، وكأنها تنتظر معرفة ردود افعالنا ، وكذلك راح السلطان يراقبنا بنفس الاهتمام ، متخللا شعر لحيته الكثة باصابعه ، حتى قال كابتن (اورم) :

- يمكننى أن اتحدث عن نفسى ، وعن الجاويش (كويك) ، فاقيد نفسينا بالوعد الذى قطعناه للملكة ، وارفض بكل اسف عرض السلطان ، فنحن نرى ان هذه الملكة الشجاعة تناضل من اجل شعبها ودينها ، ونحن نقدر كثيرا مثل هذه الحروب .

كان من المؤلم والعسير بالنسبة إلى ان اتخذ قرارى ، فقد كان يعنى التضحية تماما بولدى ، من اجل التمسك بوعد لامراة تحكم شعبا من الجبناء ، ولكن السلطان لم ينتظر جوابى ، وإنما قال فى اسف :

– كم تمنيت لو جاء جوابكم بغير هذا ، ولكن يبدو انكم تحترمون الوعود كثيرا ، وتضحون بكل مرتخص وغال فى سبيل ذلك ، على اية حال استودعكم الله ، متمنيا لو ان (مجيدة) تحكم شعبا آخر ، غير هذا القطيع من الجبناء ، الذى لا يستحق شيئا من مزاياها العظيمة .

ثم مد يده إليها ، قائلا :

– هاتى يدك يا (ام النجاشى) .. ساعود بك إلى قومك .

ناولته كفها الرقيقة ، فقادها فى رفق إلى حيث قومها ، ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ، وهو يصيح :

– لقد وقعت يا (بارونج) .. اخضع لنا او نقتلك .

كان السلطان قد تخلى عن سلاحه ، تعبيرا عن



ولم يكد يقترب منهم حتى انقض عليه بغتة العم (جوشيا) مشهرًا سيفه ، وخلفه بعض الرجال ..

حسن نيته ، وهو يقود (مجيدة) إلى قومها ، لذا فقد احتقن وجهه غضبا ، وهو يصيح :

- أيها الجبان الخنزير .. لو أننى احمل سيفى للقى احدنا مصرعه حتما ..

ثم التفت إلى (مجيدة) ، مستطردا :

- هذا الخلق الوضيع يشف عن جبن ، هو سر احتقارنا لشعبك هذا .. أترين كيف يحاربون رجلا أعزل ؟

صرخت (مجيدة) فى عمها حانقة :

- اخفض سلاحك هذا يا (جوشيا) .. إنك تجلب لنا العار بأسلوبك المشين هذا .

ولكن (جوشيا) هتف فى عناد :

- الصيد أثمن من أن أتركه بهذه البساطة .

مال الكابتن على أذنى ، هامسا :

- سأمنع هذه الخدعة القذرة ، وسأطلق النار على رأس (جوشيا) القذر هذا ، لو هم بمس السلطان بأدنى سوء .

لم يكد الجاويش (كويك) يستمع إلى حديثنا حتى وضع الفكرة موضع التنفيذ على الفور ، وأطلق النار بين قوائم جواد (جوشيا) ..

وجفل الجواد مذعورا ..

وسقط (جوشيا) أرضا ..

وفى غمرة الهرج الذى حدث ، اندفعنا نحو السلطان ، وأحطنا به وبجواده إحاطة السوار بالمعصم ، حتى أخرجناه من وسط الحصار ، وسلمناه إلى حارسيه ، اللذين كاد قلباهما يتوقفان من شدة خوفهما على سلطانهما ، الذى قال لنا فى امتنان :

- إننى أدين لجرأتكم وشجاعتكم بحياتى .

ثم نزع قلادته الفرعونية الذهبية القديمة ، ووضعها حول عنق الجاويش (كويك) ، وانطلق على جواده عائدا إلى حصنه ، بصحبة حارسيه ..

وهتفت (مجيدة) فى صرامة :

- سنتخذ طريق العودة .

وكالكلاب المذعورة ، وضع رجالها أذنابهم بين سيقانهم ، وأطاعوها صاغرين ..

وكان علينا أن نبدأ مرحلة جديدة ..

ومخيفة ..

***

٤ ـ مدينة الملكة ..

لم نكن نتصور ابدا ان طريقنا من السهول إلى مرتفعات (المور) وعر على هذا النحو ، فقد كان الصعود اشق مما يمكن تصوره بكثير ، فالواضح ان هذا الطريق لم يصنعه بشر ، وإنما صنعه تدفق المياه من المرتفعات إلى البحيرات ، التى كانت تغطى فيما مضى السهول كلها ، قبل ان تقتصر على مساحة محدودة من الماء ، لا يتجاوز طولها الخمسة والعشرين كيلومترا ، ولا يزيد اتساعها على الخمسين كيلومترا ..

وهذا الطريق يتسع فى بدايته ، بحيث يسمح بسير ثلاثة جياد متجاورة ، ثم لا يلبث أن يضيق ، حتى يكاد لا يتسع إلا لجواد واحد ، وترتفع على جانبى الطريق حوائط صخرية إلى عدة مئات من الأمتار ، وتبدو السماء فوقها كشريط أزرق ، وتعجز الشمس عن إلقاء ضوئها وسط ظلمة الممر ، إلا لحظات معدودات ، فى منتصف النهار ..

وبين حين وآخر يختفى احد الجدارين ، تاركا هوة سحيقة ، تتجاوزها الجياد وهى ترتجف ، عبر شريط الممر الضيق ، هذا إلى جانب عشرات

البوابات ونقاط الحراسة ، التى تضافرت مع عوامل الطبيعة ، لتمنع (الفنج) من غزو بلاد (الأباتى) ، على الرغم من جبن وضعف الفئة الأخيرة ..

وسار بنا الموكب العجيب ، يتقدمه نبلاء (الأباتى) على صهوات جيادهم ، تليهم فرقة مسلحة ، تتوسطها الملكة (مجيدة) ، ثم الحاشية والضباط ، ونحن بينهم ، وفى النهاية فرقة مسلحة أخرى ، عليها حماية المؤخرة طيلة الوقت ، حتى بلغنا بوابة (المور) فى نهاية النهار ..

وكان المشهد رائعا ..

سلسلة من جبال تحيط بسهول واسعة ممتدة ، تناثرت فيها المزروعات والنباتات وأشجار النخيل ، وبينها أقيمت بيوت ومنازل متناثرة ، تحيط بكل منها حديقة أنيقة ، وعلى مدى البصر هناك بحيرة فضية ، التفت حولها أكواخ الرعاة والزراع ، على نحو يؤكد أن (الأباتى) ، على الرغم من عيوبهم ، فلاحون وزراع مهرة ..

واستقبلتنا جماهير المدينة استقبالا حافلا ، وراحت تهتف بحياة الملكة والقواد ، حتى بلغنا القصر الملكى ، ذا القباب الذهبية ، الذى أتيحت

لى زيارته من قبل ، ولم يكد يستقر بنا المقام فيه ، حتى سأل (جوشيا) (مجيدة) فى غلظة :

- هل سيقيم ضيوفك فى مساكن الحجاج بالمدينة الغربية ؟

كان يتحدث بأسلوب استفزازى متعمد ، إلا أن (مجيدة) بدت هادئة ، وهى تجيبه فى بساطة :

- لا يا عماه .. سيقيمون هنا فى قصرى .. فى جناح الضيوف .

احتقن وجهه غضبا ، وهو يهتف مستنكرا :

- فى قصرك ؟! .. محال .. محال .

سألته فى ضيق :

- لماذا يا عماه ؟

أجابها فى سخط :

- انسيت انك لم تتزوجى بعد ، واننى لا اقيم بالقصر لأسهر على حمايتك ؟

اجابته هى فى حزم :

- لم انس هذا ابدا ، ولكننى استطيع السهر على نفسى ، وارى انه من الواجب ان يقيم ضيوفى فى مكان آمن ، إلى جوار امتعتهم .. اذهب انت لتحصل على قدر من الراحة ، وسأرسل لك طبيبى

الخاص ، ولا تنسى ان تشكر الله على نجاتك من المهالك .

امتقع وجه (جوشيا) لتلك السخرية المغلفة بإطار مهذب أنيق ، وبدا وكأنه سيجيب بعبارة فظة ، لولا أن غادرت (مجيدة) المكان فى خطوات سريعة ، فضرب قبضته فى الحائط فى غيظ ، وانصرف خلفها ناقمـا حاقدا ، ولم ينس فى انصرافه ان يـرمق الجاويش (كويك) بنظرة قاسية ، تشف عن حقده الخاص نحـوه ؛ لأنه المتسبب فى وقوعه من فوق صهوة جواده ، وإصابة ضلوعه بتلك الكدمات ..

ولكن هذا لم يقلق (كويك) كثيرا ..

لقد كان هناك امر آخر يقلقه ..

امر الكابتن (أورم) ، الذى كان قد اصيب بجرح سطحى ، فى اثناء نسف سور (الفنج) إلا ان تلوث هـذا الجرح قد اصـابه بحمى ، راحت تتزايد تدريجيا ، حتى اشتدت وطأتها عليه مع بلوغنـا القصر ، فلم يكن منا إلا ان نقلناه إلى فراشه ، ورحت اداويه بالمـاء واللبن ، حتى يشفى من الحمى ..

ولقد اهتمت الملـكة (مجيـدة) بأمره كثيرا ، وارسلت تسأل عن صحته مرتين ، طوال الليلة

التى سهرتها إلى جواره ، ولم تكد تشرق الشمس حتى اصطحبت طبيبها الخاص إلى حجرة (اورم) ، وسألتنى فى قلق :

ـ هل سيحيا ؟

اجبتها فى خفوت :

ـ لا يمكننى البت فى هذا الأمر حتى الآن ، فانا اخشى ان يصاب بالتسمم من تلوث الجرح .

ادهشنى أن تمتمت فى جزع :

ـ انقذه ارجوك .. ابذل ما بوسعك لاجله ، وسامنحك كل ما تطلب .

ثم انتبهت فجاة إلى لهفتها البالغة ، فاضافت فى خفوت :

ـ اغفر لى ، فلقد نسيت انه صديقك ، وانك لا تدخر جهدا لمداواته .

طمانها قائلا :

ـ سابذل اقصى جهدى يا مولاتى .. اطمئنى .

اما طبيبها ، فقد راح يتبارى معى فى وصف انواع من الدواء والعلاج ، لو تناول منها (أورم) جرعة واحدة لقضى نحبه على الفور ، لولا ان رحت استبدل بها انا ادوية اخرى منطقية ..

ومرت ثلاثة ايام بطيئة ، امتلأت فيهـا نفوسنا بالشك والقلق ، إلا ان الكابتن لم يلبث أن تمـاثل للشفاء ، ولم تقو الملكة على كتمان سعادتها وسرورها بذلك ، وراحت تولى (أورم) المزيـد من العطف والحنـان ، حتى انه لم يكد يغادر فراشـه سليما معافى ، حتى راح يختلى بها كثيرا ، ويتبادل معها الأحاديث الهامسة ، مما اصابنى بالقلق ، فقلت له مرة :

ـ حذار يا صديقى .. من الخطر على شاب مثلك ان يوثق صلته بالملكة .

قهقه ضاحكا ، وقال :

ـ اطمئن يا صديقى ، فقوانين هذه المملكة تحتم زواج الملكة من احد أقاربهـا ، ومن المستحيل أن ترتبط بى انا .

ثم اضاف فى جدية واهتمام :

ـ قل لى : هل بلغتك أخبار عن (هيجز) أو ولدك (رودريك) ؟

قلت فى ضيق :

ـ يلوح لى انـه من الأجـدى ان تبلغنى انت ما لديك من اخبار ، فانت لصيق بالملكة ، وتعلم عنها ما يجهله حتى عمها .

ابتسم واجاب :

– لقد ابلغتنى ان كليهما فى صحة جيدة ، وانهما يعاملان معاملة حسنة ، ولكن السلطان (بارونج) يعزم التضحية بـ (هيجز) بعد اسبوعين ، وانا اعتزم بذل حياتى ، لو اقتضى الامر ، فى سبيل منع هذا .

وصمت لحظة ، ثم اضاف :

– وهذا هو محور احاديثى الهامسة مع (مجيدة) ، بخلاف ما تصورت أنت .

قلت فى اهتمام :

– يجب ان نتحرك على الفور ، فقد تم لك الشفاء ، ولم يعد هناك مبرر للتلكؤ .

قال فى حماس :

– سابذل اقصى ما يمكننى لتخليص (هيجز) ، حتى لو اقتضى الامر ان ابدله بنفسى ، عند سلطان (الفنج) .

ومال على ، مستطردا بمزيد من الحماس :

– استمع إلى .. ستعقد (مجيدة) مجلسها الأكبر بعد ثلاثة ايام ، وستحاكم خلاله (القط) ، واغلب الظن انها ستحكم عليه بالإعدام ، وبعدها

سنعرض ما لدينا ، لنصل إلى قرار حاسم .

واعتدل فى حزم ، مستطردا :

- ولنبدأ عملية الإنقاذ .. مهما كان الثمن ..

ودوت العبارة الأخيرة فى راسى ..

« مهما كان الثمن .. »

وارتجف جسدى فى خوف ..

***

٥ ـ الحياة والموت ..

لم يرق لى ابدا ذلك الأسلوب ، الذى حضرنا به مجلس الملكة ، بعد مرور تلك الأيام الثلاثة ..

لقد قادنا الحرس إلى المجلس ، كما لو اننا نحن السجناء ، ووجدنا المئات من (الأباتى) هناك ، وقد جلسوا فى صفوف منتظمة ، امام (مجيدة) ، التى جلست على عرش من ذهب ، ينتهى ذراعاه براسى أسدين ، وهى ترتدى ثوبا من خيوط الفضة اللامعة ، وتخفى وجهها بقناع موشى بنجوم فضية ، وقد احيطت قمة راسها بدائرة من الذهب ، تتوسطها ياقوتة حمراء ساطعة ..

وعلى الرغم من جسدها الضئيل ، بدت زهرة (المور) فاتنة ، ساحرة ، مهيبة ، وقد وقف جنودها المدججين بالسلاح خلف عرشها ، فى حين احاط بها قوادها وضباطها وقضاتها ، فى ثيابهم الرسمية الأنيقة ، وعدد من وصيفاتها فى ابهى حللهن ..

وطالت محاكمتنا ، وانكر (القط) التهم الموجهة إليه ، وتم استدعاؤنا للشهادة ، وفى النهاية صدر الحكم بإعدام (القط) ، جزاء خيانته ، ومصادرة ممتلكاته ، وان تصبح زوجته واولاده عبيدا ارقاء ..

كذلك صدر الحكم على كل من شارك (القط) فى مؤامـراته بالتجـرد من الأملاك ، والالتحـاق بالجندية ..

وانتهت المحـاكمة بين نحيب وعـويل المتهمين واقاربهم ، واصابتنا الدهشة من اساليب (الاباتى) واحكامهم ، وهتف الكابتن مستنكرا :

ـ اى خير فى امة يعاقب مجرموها بالجندية بدلا من السجن .

غمغمت محاولا تهدئته :

ـ هكذا اساليبهم .

هز راسه فى قوة ، مستنكرا ومعترضا ، إلا انه لزم الصمت ، ولم يشر إلى هذا الأمر مرة ثانية ، حتى حانت الاستراحة ، فتقدمت نحو سليلة الملوك ، ووضعت خاتم (بلقيس) على وسادة حريرية ، قدمها لها احد ضباطها ، وانا اقول :

ـ ايا سليلة الملوك وزهرة (المور) .. يشرفنى ان اعيد إليك خاتمك ، الذى يحمل دلائل الثقة المتبادلة بيننا ، والذى استطعت بواسطته حمل زملائى واصدقائى على اصطحابى فى رحلتى إلى هذه الجهات النائية ، إلى الحد الذى اوقع باحدهم فى اسر وعبودية (الفنج) .

تناولت (مجيدة) الخاتم ، والقت عليه نظرة سريعة ، ثم ارته لكهنتها ، قبل ان تقول فى هدوء :

ـ شكرا لك ان اعدت هذا الكنز الأثرى الغالى لى ولرعيتى ايها الطبيب .

ووضعت الخاتم فى إصبعها ، واستطردت :

ـ أنتم تعرفون قضيتنا ايها النبلاء .. (الفنج) يحيطون بنا ، ويتهددوننا بالويل والثبور وعظائم الامور ، وكما اخبرت الطبيب من قبل ، إننى اسعى إلى هدم معبد (الفنج) ومعبودهم ؛ لان هذا ـ فى عقيدتهم ـ نذير لهم بالهجرة من هذه الأرض إلى بلاد اخرى ، طبقا لنبوءة وثنية قديمة .

قاطعها (أورم) :

ـ معذرة يا زهرة (المور) ، ولكنك سمعت مثلنا (بارونج) ، سلطان (الفنج) يهدد بالانتقام لهدم معبده ومعبوده .

ترددت همهمة ذعر وفزع بين الحاضرين ، إلا ان (مجيدة) ظلت على هدوئها ، وهى تقول :

ـ الأقوال غير الأفعال ، وهؤلاء الوثنيون يؤمنون بالنبوءة إيمانا مطلقا ، وسيدفعهم هذا إلى الهجرة فور تهدم معبودهم ، حتى ولو شاء ملكهم غير هذا .

ثم اعتدلت ، مستطردة :

- والآن .. هل تقسمون على خدمتى ؟

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول الكابتن :

- ينبغى ان نعرف المطلوب منا اولا .

قالت عالية الرأس :

- اقسموا على خدمتى ، والحرب من اجلى ، والخضوع لقوانينى ، وأن تبذلوا أقصى جهدكم لتدمير معبد (الفنج) ومعبودهم ، ولكم بعد ذلك مطلق الحرية فى البقاء أو الذهاب حيثما تشاءون ، مع مكافأة تبهر الأنفس .

ساد الصمت لحظات اخرى ، بدا خلالها ان الكابتن يفكر فى عمق ، قبل ان يسأل فى اهتمام :

- وأية مناصب سنشغلها لو فعلنا ؟

اجابته فى حزم :

- ستكون القائد الأعلى لهذه الحرب ، وستختار انت المنصب الذى يعمل فيه زميلاك .

سرت زمجرة غاضبة بين قوادها ، وارتفع من بينهم صوت يقول :

- أتعنين أننا سنضطر لطاعة هؤلاء الأجانب ؟

التفتت إلى مصدر الصوت ، وقالت فى صرامة :

- نعم .. ستفعلون هذا ، إلا إذا استطعتم إعداد

تلك المواد المتفجرة واستخدامها ، وهدم جزء من أسـوار (هرمق) مثلهم .. هل تستطيع هـذا يا عماه .

عقد العم (جوشيا) حاجبيه ، وصمت فى غضب ، فى حين سأل الكابتن الملكة فى اهتمام :

– لقد جعلتنى قائدا على جنودك يا مولاتى ، ولكن اخبرينى ، هل سيطيعوننى ؟.. هل يحمل كل منهم سلاحه ؟.. ثم من هم جنودك ؟

تطلعت إليه لحظـات فى صمت ، ثم اجابت فى حزن :

– لا يمكننى منحك جوابا منطقيـا ، بالنسبة للسؤال الأول ، فسيعود أمره إليك وحدك ، أما بالنسبة للسؤالين الآخرين ، فالواقع انه كان لجداتى وامهاتى جنود اشداء فيما مضى ، أما الآن فجنودنا ضعفاء جبناء ، والسلاح لا يكاد يكفى ثلثهم ، وهو لا يعدو الرماح والسهام والأقواس ، و ...

اختنق صوتها فى حلقها ، حتى انها لم تستطع إتمام حديثها ، ثم لم تلبث ان انفجرت بغتة باكية وسط مجلسها ، فسمعت الجاويش (كويك) إلى جوارى يتمتم :

ـ اللهم عاون هـذه الملكة الوحيـدة المنكوبة بشعبها .

وهنا نهض الأمير (جوشيا) ، واتجه إليها ، وركع امام عرشها ، وهو يقول فى صوت حمل الكثير من انفعاله :

ـ لماذا تحزنيننا بهذه العبارات يا سليلة الملوك ؟ السنا فى حمى (سليمان الحكيم) ؟

تمتمت من وسط دموعها :

ـ (سليمان) لا يحمى إلا من يحمون انفسهم .
اشار إلى صدره ، قائلا :

ـ اليس لديك قواد شجعان ؟.. اليس لديك عمك وابن عمك ؟

غمغمت فى مرارة :

ـ وماذا يفعل القادة بلا جنود ؟
قال فى حدة :

ـ لقد رايت بنفسك كيف كنت على وشك ذبح (بارونج) ، لولا تدخل ضيوفك البيض .
انتفضت فى مجلسها ، وقالت فى صرامة :
ـ وكنا سنخسر شرفنا ايضا يا عماه .
ثم رفعت ذراعها فى حدة ، هاتفة :

– لقد انفض المجلس ، وليحضر الكاهن ليقسم البيض امامه .

برز من خلف العرش رجل مهيب الطلعة ، واضح الوقار ، تلتمع تحت لحيته البيضاء الجواهر والأحجار الكريمة ، ويحمل فى يده أسطوانة ورقية ملفوفة ، كتبت عليها كل قوانين (الأباتى) ، منذ عهد (سليمان الحكيم) ، ووضع الرجل الأسطوانة الورقية امامنا ، وطالبنا بإلقاء القسم ، فقال الكابتن فى حزم :

– قبل أن نقسم ، نحب ان نؤكد ان ولاءنا الأول لوطننا ومليكنا ، ثم إننا نريد تعهدا من الملكة بمساعدتنا على إنقاذ زميلنا الاستاذ (هيجز) ، وابن الطبيب (رودريك) ، الذى يطلقون عليه اسم (مطرب مصر) .

اجابت الملكة بلا تردد :

– لكم هذا .

وعندئذ اقسمنا قسم الملكة ..

***

اعتدنا مع مرور الوقت نوم القيلولة ، الذى يقدسه شعب (الأباتى) كثيرا ، وفى يوم القسم ،

استيقظت فى الرابعــة عصرا ، على صوت نبــاح (فرعون) ، فنهضت استطلع الأمر ، ووجدت امامى رجلا يرتجف خوفا من الكلب ، فسألته فى صرامة :

ــ من انت ؟

اجابنى فى سرعة :

ــ إننى رسول الملكة ، وهى تسأل عما إذا كنتم ترغبون فى مرافقتها إلى مكان لم تروه من قبل .

وافقته على الفور ، والتقيت مع (اورم) و (كويك) ، ورافقنا الرسول إلى فناء مهجـور خلف القصر ، حيث وجـدنا الملـكة فى انتظـارنا ، مع ثلاث من وصيفاتها ، وعدد من الرجال يحملون المشاعل ، ولم تكد ترانا حتى رفعت نقابها ، وابتدرتنا قائلة :

ــ لا ريب انكم قد رايتم الكثير فى حياتكم ، عبر رحلاتكم المختلفة ، ولكننى ساريكم اليوم اغرب شىء فى حياتكم كلها .

تبعناها إلى بهو كبير ، فى نهايته باب ضخم ، رفع الرجال مزاليجه ، فعبرناه إلى ممر طويل ، منحوت فى الصخور ، واغلق الرجال الباب خلفنا ، ومضينا فى الممر حتى بلغنا مغارة . .

بل هى أضخم مغارة رايتها او سمعت بهــا من قبل . .

وقالت (مجيدة) ، وهى تلوح بمشعل فى يدها :

ـ ها هو ذا كهف (المور) ، الذى نعتقد انه كان معقل اجداد (الفنج) فيما مضى ، اما هذه الجدران والاطلال هناك ، فقد كانت مخازنهم ومعابدهم ، ولكن زلزالا حطم كل هذا ، ودفعهم إلى الهجرة ..

تبعناها ثانية إلى اعماق الكهف الهائل ، ومشاعلنا تبدو داخله كنجوم خافتة ، عاجزة عن تبديد ظلمته ، من شدة ضخامته ، حتى بلغنا مكانا به اطلال واعمدة متهدمة وتتوسطه عدة تماثيل محطمة ، مغطاة بطبقة كثيفة من الاتربة ، لم تخف تماما شكلها الشبيه بـ (ابى الهول) ، فتنهد (اورم) ، وقال :

ـ ليت (هيجز) هنا .

وبعدها قادتنا (مجيدة) إلى نبع يتدفق فى قوة ، وقالت فى اسف :

ـ كان (الفنج) يستخدمون هذا الكهف كمخزن للمؤن ، فى حالة الحصار ، ولقد حاولت إقناع شعبى باستخدامه لهذا الغرض ، ولكن كل من الكبار يتردد فى التضحية ببعض إنتاجه كمخزون ، وهكذا لن ينقذنا شىء من الموت جوعا ، لو احتل (الفنج) سهولنا .

سارت أمامنا ترينا إسطبلات الخيل ، التى كان (الفنج) القدماء يحفظون فيها جيادهم وعرباتهم ، ورحنا نعبر عدة ممرات ، انتهت إلى طريق واسع ، فى نهايته جدار أبيض ، لم يكد يراه أتباع الملكة حتى علا الرعب وجوههم ، فتقدمت هى إلى الجدار ، ونزعت منـه حجـرا كبيرا فى سـهولة ، وقالت لوصيفاتها :

ـ كلكم تعتقدون أن هذا الجدار يسكنه الجن ، وتحوم حوله الأرواح ؛ لذا فسأتركم هنا فى حراسة الرجال ، وسأصحب الضيوف إلى داخله ، لأثبت لكم خطأ هذا الوهم .

وتناولت يد (أودم) ، وعبرت معه ثغرة الجدار فى هدوء ، وتبعتهما أنا والجاويش ، فوجدنا أنفسنا فى كهف آخر ، ترتفع حرارته قليلا ، وسألها الكابتن :

ـ ما هذا المكان ؟

أجابته فى هدوء :

ـ مقبرة ملوك (المور) القدامى .

سرت فى جسدى رهبة من وقع الجواب ، ورحنا نسير وسط السكون ، ووقع أقدامنا يبدو واضحا على الأرض الصلبة ، والخفافيش تحوم حول ضوء المشاعل مضطربة خائفة ، وترتطم بالجدران ، حتى

عبرنا المكان إلى ما يشبه ساحة قتال ، فى مواجهتها عرش ضخم من الحجارة ، اتجهت إليه (مجيدة) ، ورفعت مشعلها أمامه ، قائلة :

ـ انظروا .

بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ، يعلوها تاج من الذهب ، وأمام العرش صولجانٍ وخواتم وحلى من الذهب والمجوهرات ، وحوله عدد ضخم من العظام والجماجم البشرية ، أسفل كل منها الحلى التى كان يتزين بها أصحابها فى الدنيا ، وإلى جوارها أوان من الذهب ، تكتظ بالحلى والقلادات والأحجار الثمينة ، وأكوام من نقود فضية وذهبية قدم عهدها ، وبطل تداولها ، ولما رآتنا (مجيدة) مدهوشين مشدوهين ، أشارت إلى كل هذا ، قائلة :

ـ الجالس على العرش هو الملك ، وحوله ضباطه وحراسه ونساؤه ، وقد ذبحوا إلى جوار جثته ، ليسهروا على رعايته فى الحياة الأخرى ، وهذه حليهم ومجوهراتهم .

ثم أشارت بيدها ، مستطردة :

ـ هيا لتشاهدوا باقى الملوك .



ورفعت مشعلها أمامه ، قائلة :　　　　— انظروا .
بدت لنا كومة من العظام البشرية فوق العرش الحجرى ..

رحنا ننتقل من عرش إلى عرش ، ومن كنز إلى كنز ، حتى اصابنا السأم من تكرار المشاهد ، ولم يثر انتباهى سوى آنية احتشدت بآلات جراحية قديمة ، وعلمت ان العظام التى امامها هى عظام طبيب احد الملوك ، فملأت جيبى ببعض هذه الآلات القديمة ، لمقارنتها بآلاتنا الحديثة ، وشعرت (مجيدة) بما أصابنا من تعب وملل ، فقالت :

ـ سنعود الآن ، ولكن بقى ان تعلموا ان هذه الصخرة الضخمة امامنا هى الحاجز الذى يفصلنا عن معبود (الفنج) ، ونحن نعجز عن اجتيازها ، ولا نعلم إلى اى مدى تمتد .

عدنا ادراجنا بين العظام والجماجم ، وفى طريق العودة سأل الكابتن الملكة :

ـ ولكن اين تدفنون موتاكم حاليا يا سيدتى ؟

اجابته :

ـ فى الخارج ، فلم اكشف هذا المكان إلا منذ اعوام قليلة ، ولكن بالنسبة إلى اتمنى ان أدفن فى السهول ، لاقضى حياتى الآخرة بين الحشائش والزهور .

وفجأة انطفأ المشعل الوحيد لدينا ، وساد الظلام تمـــاما . .

وسط القبور . .

❋ ❋ ❋

كان موقفا مرعبا بحق ، أن نجد أنفسنا وسط الموتى ، فى ظلام دامس ، ولقد صاحت (مجيدة) مذعورة :

– يا إلهى !! . . نسينا أن نحضر مصباحا آخر . . أسرعوا ، فما زلنا بعيدين عن مدخل المغارة .

راحت تعدو ممسكة بيد الكابتن ، وأنا والجاويش نتعثر خلفهما ، فى محاولة للحاق بهما ، وســمعنا الكابتن يهتف بنا :

– ابقيا فى مكانكما ، سنعود إليكما ، ولكن أطلقا صيحة بين وقت وآخر ؛ لنتعرف موقعكما فى يسر .

أجابه الجاويش (كويك) :

– سنفعل يا سيدى .

تردد صدى الأصوات من حولنا ، فارتجف قلبى رعبا ، وأطلق (كويك) ضحكة عصبية ، وهو يقول :

- ليس للموتى أصوات .. إنما هو صـدى اصواتنا .

حاولنا ان نبقى فى اماكننا ، كما أمرنا الكابتن ، ولكن الرعب لم يمكنا من هذا ، فرحنـا نتقدم فى بطء ، وارتطمت قدم الجاويش بجمجمة ، وسقط ارضا ، فأطلق صيحة رددت الجدران صـداها ، فانحبست انفاسنا فى رعب ، وجلسنا نلهث لحظة ، بدت لنا اشبه بدهر كامل ، قبل ان يهتف (كويك) :

- يا إلهى !.. لقد نسيت اننى احمل فى جيبى علبة ثقاب ..

اخرج العلبة من جيبه ، واشعل احد اعوادها ، ثم شهق مبهوتا ..

لقد راينا امامنا مذبحا ذا درجات ،لم ننتبه إليه من قبل ، وعلى أول درجاته ، كانت (مجيدة) بين ذراعى الكابتن ، الذى انحنى على شفتيها ، والصق بهما شفتيه ، وهى ترتكن براسها على صدره ، دون أن تبدو منهما حركة واحدة ، وكأنما استحالا إلى تمثالين من الرخام ..

ثم سعل (كويك) ، وهتف :

- كم يسـعدنى ان عثرنا عليكمـا يا كابتن ..

يا إلهي !.. هل فقدت الملكة وعيها .. دعني أعاونك يا سيدتي .

التفت إليه (أورم) كالذاهل ، وحدق في وجهه لحظات في صمت ، ثم بدا وكأنما يستيقظ مع (مجيدة) من سبات عميق ، وهو يهتف :

ـ لا .. لا داعي لذلك .

ثم نهض يعاون الملكة على النهوض ، وانطلقنا جميعا نجتاز الكهف إلى الخارج ..

وعدنا إلى القصر ..

وقبل ان نستسلم للنوم ، قال (أورم) في لهجة حالمة :

ـ يا لها من رحلة رائعة في غياهب المجهول ! ، ويا له من فارق رهيب بين الموتى القدامى ، وسليلتهم المفعمة بالحياة والحب !!

بدا لي انه من الأفضل ان أواجهه بالموقف بكل صراحة ، فقلت :

ـ الواقع انني قد تصورت ، عندما اشعل (كويك) عود الثقاب ، انك و (مجيدة) كنتما ...

ترددت في إتمام العبارة ، فقال هو في حزم :

ـ لم تكن واهما .. لقد كنت اقبلها ، فقد فجر

الموقف والظلام عواطفنا المكبوتة ولم نستطع كتمان مشاعرنا .

لذت بالصمت لحظات ، ثم غمغمت :

- يسعدنى أن ربط الحب بينكما يا صديقى ، ولكننى أخشى مغبة هذا .

قال كالحالم :

- إنها اجمل غادة وقعت عليها عيناى ، فى الدنيا كلها يا (آدمز) . .

لحظتها أيقنت من انه لا فائدة . . لقد ربط الحب بينهما ، ووقع وثيقة موتهما . .

وارتجف قلبى بين ضلوعى . .

وهوى . .

* * *

٦ ـ الأسـود ..

لم نكد ننتهى من تناول إفطارنا فى الصباح ، حتى اتى رسول الكة يدعونا لمقابلتها ، فذهبنا إليهـا ، ونحن نتساءل عن سر دعوتها لنا ، وعندما اجتزنا الممر الطويل ، الذى يقود إلى بهو العرش ، ملت على اذن (أورم) ، وهمست فى قلق :

ـ أستحلفك بالخـالق ان تلتزم بكل الحـذر يا رجـل ، وأن تخفى مشـاعرك تجاههـا الآن ، فسيراقبون وجهك كما يراقبون كلماتك .

تضرج وجهه قليلا ، وغمغم :

ـ اطمئن .

تمتمت قلقا :

ـ كم اتمنى ان افعل .

استقبلتنا الملكة باسمة الثغر ، متهللة الأسارير ، وقالت :

ـ لقد دعوتكم لسبب هام ، فعندما هممنـا بإعدام (القط) الخائن ، تضرع لنـا ان نبقى على حياته ، حتى يمكنه ان يدلى إلينا بسر هام خطير ، قد يساعدنا على إنقاذ زميلكم (هيجز) .

هتفنا انا والكابتن فى آن واحد :

- كيف ؟!

هزت راسها قائلة :

- لست ادرى ، ولكننى رايت انه من الحكمة ان ارجىء قتله ، حتى تستمعا منه إلى ما لديه .

واشارت بيدها ، ففتح باب جانبى ، دلف منه (القـط) ويداه مقيـدتان خلف ظهـره ، وقدماه مربوطتان بسلسلة من الصلب ، واندفع نحو الكابتن مستعطفا ، ولكن الحراس دفعوه ارضا فى عنف ، وقالت الملكة فى صرامة :

- ما الذى تريد ان تخبرنا به ايها الخائن ، قبل أن تلقى جزاءك ؟

قال وهو يرتجف :

- إنه سر بالغ الخطورة يا مولاتى ، فهل اتحدث به أمام الجميع .

صمتت لحظة مفكرة ، ثم قالت :

- لا .

وامرت الحراس ومعظم الحاضرين بمغادرة المكان ، ثم التفتت إلى (القط) ، قائلة :

- هات ما لديك .

ازدرد (القط) لعابه فى صوت مسموع ، وقال :

ــ الإنجليزى (هيجز) مسجون فى المعبد الكبير .

سالته انا :

ــ كيف عرفت ؟

اجاب :

ــ انا اعلم هذا جيدا ، واستطيع ايضا ان ادلكم على طريق خفى إلى المعبد ، يمكننا بواسطته ان ننقذ (هيجز) من سجنه .. لقد اطلقوا على لقب (القط) ؛ لاننى اتسلق الجدران فى خفة ويسر ، وعندما القى (الفنج) القبض على ، القوا بى طعاما للأسود ، ولكننى نجوت بمعجزة ، واستطعت الفرار ، بعد ان اصابتنى مخالب لبؤة بهذا الجرح فى وجهى .

وراح يشرح ما ينبغى عمله ، حتى هتف الأمير (جوشيا) :

ــ إننى اعترض على ان تقحم مليكتنا نفسها فى مثل تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر ، والتى قد تنطوى على هلاك ودمار .

أجابته فى هدوء :

ـ اشكر لك قلقك على يا عماه ، ولكن إصرارى على خوض هذه الرحلة لا يعود إلى رغبتى فى إنقاذ الأبيض فحسب ، وإنما إلى وجود طريق سرى إلى معبد (الفنج) ، ينبغى لى ان أعرفه ، وعلى الرغم من ذلك فانا اوافقك على ضرورة ذهابى مع حماية او حراسة ؛ لذا فانا ارجو ان ترافقنى فى رحلتى .

ارتبك العم ، وراح يلتمس الأعذار والأسباب ، حتى قاطعته هى فى حزم :

ـ لقد سنحت الفرصة لتثبت شجاعتك ومهارتك وجراتك ، التى طالما تحدثت عنها يا عماه .. إنك ستذهب معنا .. هذا امر .

ولم يكن أمامه سوى القبول ..

***

قادنا (القط) ، عصر اليوم نفسه ، عبر ممرات جبلية طويلة ، إلى قمة جبلية ، تشرف على هوة سحيقة ، يبلغ عمقها ألفين وخمسمائة متر تقريبا ، ولا سبيل إلى بلوغ قاعدتها ـ حسبما رايت ـ حيث تكثر السهول ، ولكن (القط) اتجه إلى جدار صخرى ، نبت العشب فوقه ، وأزاح منه حجرا

كبيرا ، فانكشفت لنا فجوة واسعة ، تمتد إلى ممر طويل ، وهو يقول :

ـ لقد كشفت هذا الممر منذ كنت صبيا ، وليتبعنى فيه من يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ، فهو شديد الوعورة والانحدار .

راح (جوشيا) يتضرع إلى (مجيدة) أن تتنازل عن فكرة خوض الممر ، ولكنها أجابت فى عناد وإصرار :

ـ ولماذا أتردد أو أخاف ، ومعنا خيرة رجالنا فى تسلق الجبال ، ثم إن الطبيب ، الذى يبلغ عمره مثل عمر أبى ، لم يتردد فى المخاطرة ، فكيف أفعل أنا ؟ هيا يا عمى .. لا تتردد .

اضطر (جوشيا) إلى رفقتنا مرغما ، واتصلت الحبال بيننا جميعا ، وتقدمنا (القط) والجاويش ، ثم عدد من متسلقى الجبال ، يحملون السلالم والمصابيح والوقود والطعام وخلافه ، ثم الملكة والكابتن و (جوشيا) ، وخلفهم عدد آخر من متسلقى الجبال ..

ورحنا نهبط درجا شديد الانحدار ، انحنى إلى آخر أشد رطوبة عند الشرق ، وكاد (جوشيا)

يقتلنى ، عندما انزلقت قدمه ، فتشبث بذراعيه فى رقبتى خشية السقوط ، وكاد يقتلنى خنقا ، لولا ان اسرع احد متسلقى الجبال يبعده عنى ، فاصررت ان يتقدمنى ، حتى لا تتكرر المأساة . .

وعندما بلغنا المنحدر الثالث ، كان التعب قد بلغ من (جوشيا) مبلغه ، فأقسم الا يخطو خطوة واحدة ، وفشلت محاولاتنا وتأكيدات (القط) فى إقناعه بالعدول عن قسمه هذا ، حتى قالت (مجيدة) فى حزم :

ـ لا بأس ، فلتبق فى مكانك هذا حتى نعود ، وليس هناك ما تخشاه ، فلن تهاجمك الوحوش .

تمتم فى سخط :

ـ يا لك من إمرأة لا قلب لها !! .. أتتركين عمك وحيدا ، فى هذا الجحر المسكون ، فى حين تتسلقين أنت الصخور كقطة مسعورة ، مع جماعة من الاجانب ؟.. اما كان ينبغى ان تظلى إلى جوارى ؟

هتفت فى صرامة :

ـ ليقال إن سليلة الملوك قد جبنت عن الذهاب حيث ذهب الغرباء .. لا يا عماه .. لا والف لا .

لم يسعه إزاء حزمها وصرامتها إلا ان يعود لمرافقتنا ، وإن اضطر متسلقو الجبال لحمله طيلة

الطريق ، حتى بلغنا هضبة صغيرة ، تسللت إليها طلائع الفجر الأولى ، وانتشرت فى ارجائها أشجار واعشاب وطحالب ، نمت إلى جوار صخور ضخمة ، اشارت إليها الملكة ، قائلة :

ـ ما هذا ايها (القط) ؟

اجابها :

ـ إنه ظهر المعبود الكبير لـ (الفنج) يا سليلة الملوك .. إنه على هيئة أسد ضخم ، وذلك العمود هو ذيله ، وهذه الهضبة التى نقف عليها كانت فيما مضى نقطة مراقبة لكهنة (الفنج) ، عندما كانوا يملكون ارض (المور) ايضا ، وهناك جسر يهبطون منه إلى ذيل المعبود .

همست (مجيدة) إلى الكابتن :

ـ يبدو انه يتصل بـ (الفنج) ، عبر هذا الطريق .

ثم سألت (القط) :

ـ لماذا جئت بنا إلى هنا ؟

اجابها :

ـ لننقذ الإنجليزى ، فمن عادة (الفنج) ان

يسمحوا للمسجونين بالتجوال عند الفجر والغروب ، وارى ان نهبط إلى ذيل المعبود ، حتى نلتقى بالإنجليزى وننقذه ، والأفضل ان يصحبنى الكابتن ، حتى لا يستريب (هيجز) .

هتفت الملكة مستنكرة :

- ايها الأحمق .. اتتصور ان يخاطر الكابتن إلى هذا الحد ؟

قال (القط) فى خبث :

- هل تشكين فى شجاعته ؟

هتف به الكابتن :

- ويلك ايها الوغد !.. إياك ان تسىء إلى شجاعتى ، ولكنك قد ترمى بذلك إلى مكيدة ، تسلمنى بها إلى (الفنج) .

صاحت (مجيدة) بالكابتن :

- من الجنون ان تلقى بنفسك من الجبل ، وانت توقن بانك ستتهشم ارضا .

قال عمها فى لهجة ساخرة :

- ولكننا سمعنا الكثير عن شجاعة الأجانب ، فلم لا تمنحينهم الفرصة لإثبات هذا ؟

التفتت إليه ثائرة حانقة ، وقالت فى حدة :

ـ اليس من الأفضل ان يثبت صـاحب الدم النبيل انه لا يخشى إتيان ما يقدم عليه الفرباء ؟

شحب وجه عمها ، وانكمش على نفسـه فى خوف ، فابتسم (اورم) فى سخرية ، وانحنى ينزع حذاءه ، وهو يقول :

ـ إننى افضل السير بالجورب ، فى المنـاطق الوعرة ، ولا يقلقنكم أمرى ، فلقد اعتدت المخاطرة منذ صباى .

غمغمت الملكة فى قلق :

ـ ولكن هذا يفوق كل ما فعلت بالتاكيد .

اما الجاويش (كويك) ، فقد انحنى بخلع حذاءه بدوره ، مما جعلنى اساله فى دهشة :

ـ ماذا تفعل ؟

اجابنى فى حسم :

ـ سارافق الكابتن .

قلت فى عناد :

ـ بل سـارافقه انا ، فلست اقلكمـا استهانة بالمخاطر .

قاطعنا الكابتن صائحا :

ـ كفى .. انا القائد هنا ، وستطيعان اوامرى بلا مناقشة ، وانا امنعكما من مرافقتى .

قالت الملكة :

ـ فليرافقك احد متسلقى الجبال إذن .

والتفتت إلى احد رجالها ، قائلة :

ـ تعال يا (جانيت) ، ورافق السيد ، واعدك ان اهب لك او اهب إلى ورثتك قطعة ارض كبيرة ، لو اديت مهمتك كما ينبغى .

القينا سلما من الحبال إلى ذيل الأسد الحجرى ، ورحت استطلع المنطقة بمنظارى المقرب ، حتى لاح لى شبح ابيض عند راس المعبود ، ورجحت ان يكون (هيجز) ، إلا انه لم يلبث أن رفع عقيرته بغناء شجى رخيم ، جعلنى اهتف فى انفعال :

ـ إنه ولدى .. حمدا لله .. إنه لا يزال حيا .. آه لو نستطيع إنقاذه ايضا !!

وسالت الدموع على وجهى ، فربت الجاويش (كويك) على ظهرى ، وهو يقول :

ـ اهدا ايها الطبيب ، ولتحمد الله على انه ما زال يحمل راسه على كتفيه .

ويبدو ان تهدئته هذه لم ترق لـ (القط) ، فقد قال فى برود :

- إنها ساعة إطعام الأسود المقدسة الآن ، و (الفنج) يحتفظون بها داخل مغارة ، عند قاعدة المعبد ، ولابد ان نعمل على إنقاذ الأستاذ الليلة ، فسيحتفلون بعيدهم ، وسيقدمونه قربانا لآلهتهم عندما يصبح القمر بدرا .

قالها وحاول ان يهبط سلم الحبال ، ولكن (مجيدة) صاحت :

- لا .. لن يعود هذا الخائن إلى اصدقائه (الفنج) .. انزل انت اولا يا (جافيت) ، وسيتبعك الكابتن .

راقبنا (جافيت) فى قلق ، وهو يهبط السلم ، متحسسا مواضع قدميه فى حذر ، حتى بلغ الصخرة المنشودة ، وهنا استدار الكابتن يصافحنى ويصافح (كويك) ، ثم انحنى للملكة ، التى شحب وجهها ، وبدا اضطرابها وحبها واضحين ، وهى ترد تحية (أورم) ، الذى اتجه إلى السلم وراح يهبط فى شجاعة وثقة ..

وفجأة انكسرت درجة السلم ، التى يضع ثقله عليها ..

وهوى من حالق ..

***

كانت لحظة وثبت فيها قلوبنا من بين ضلوعنا ، ولهثت فيها الملكة المحبة بفؤاد مزقه الهلع وأدمته اللوعة ، وبدا لنا جميعا أن (أورم) قد انتهى ..

ولكن شاء له القدر أن يحيا ..

وبحركة سريعة ، دفعته إليها غريزة البقاء ، قفزت يده تتعلق بدرجة سليمة من درجات السلم ، وتشبث بها فى قوة ، وراح يلهث من فرط الانفعال ، فى حين تنفسنا نحن الصعداء ، وتمنيت لو لم يلحظ (جوشيا) دموع الارتياح والسعادة ، التى سالت من عينى الملكة ، ولكن زهرة (المور) لم تلبث أن جففت دموعها فى سرعة ، واعتدلت فى وقفتها فى حسم ، وهى تواصل مراقبة الكابتن ، الذى بلغ موضع (جافيت) ، فاحتضنه هذا الأخير فى سعادة واضحة ، وراح الاثنان يتسلقان المنحدر الصخرى الأملس ، حتى بلغا كتفى الأسد ..

وفى تلك اللحظة ظهر الأستاذ (هيجز) ، وهو يسير الهوينى ويدون شيئا ما فى مفكرته ، بكل البساطة والهدوء ، وهنا تقدم إليه (أورم) ، وأمسك ذراعه فى قوة ، فالتفت إليه (هيجز) ، وحدق فى وجهه فى ذهول ، ثم انحنى الكابتن على أذنه ، ورأيته يهمس بأمر ما ، علمت فيما بعد أنه

كان سؤالا عن موضع ابنى (رودريك) ، ثم رايت الأستاذ يلوح بيده فى اهتمام ، ويختفى خلف راس المعبود ، ومضت دقائق من السكون ، ثم تناهت إلى اسماعنا أصوات وصيحات عالية ، ورأينا الأستاذ يعدو بكل قواه صائحا فى الكابتن و (جافيت) :

ـ اهربا .. انجوا بنفسيكما من هؤلاء المتوحشين .

اسرع الكابتن و (جافيت) يتسلقان السلم ، ورأى الكابتن بعض (الفنج) يتسلقون خلفهما ، فاخرج مسدسه ، واطلق النار على رءوس بعضهم، فسقطوا صرعى ، ورأى الباقون مصرع زملائهم ، فلاذوا بالفرار ، وهم يطلقون صيحات مخيفة ..

ولم يكد الكابتن يصعد إلينا حتى ألقى نفسه أرضا ، واخفى وجهه بين يديه فى الم ومرارة ، فربتت (مجيدة) على كتفه ، وقالت فى حنان :

ـ لماذا يا عزيزى ؟!.. لقد كنت شجاعا صنديدا ، وعدت إلينا حيا ، وهذا يكفى .

هتف فى مرارة :

ـ ولكننى تركت اخى وصديقى (هيجز) خلفى ، وسيلقونه الليلة للأسود ، ولقد اخبرنى هذا بنفسه ، وكان يكتب وصيته عندما لقيته .

لم تجد ما تجيبه به ، فالتفتت إلى متسلق الجبال ، وقالت :

ــ إننى فخورة بك يا (جافيت) ، وساجزل لك العطاء ، واجعلك قائدا لمتسلقى الجبال .

تهللت أسارير (جافيت) فى سعادة ، فى حين سألت أنا الكابتن :

ــ ماذا حدث مع (هيجز) ؟

اجابنى والحزن لم يفارق صوته بعد :

ــ لم اكد التقى بـ(هجيز) حتى سألته ان يرشدنا إلى موضع ولدك ، ولكن الحراس راوه يتحدث إلينا ، فكان ما كان .

ثم التفت إلى (القط) ، وامسكه من عنقه ، قائلا فى غضب مخيف :

ــ والآن حذار ان تكذبنا القول أيها الوغد .. لقد اخبرتنا انهم قد القوك طعاما لأسودهم ، ولكنك نجوت ، فكيف كان هذا ؟

هتف (القط) فى صوت مختنق :

ــ ارفع يدك عن عنقى ، واقسم ان اخبرك بكل ما حدث .

ترك الكابتن عنق (القط) ، الذى سعل فى شدة ، ثم اجاب :

ـ لقد حملنى (الفنج) إلى مكان إطعام الأسود ، والقونى بين اللحوم المقدمة لها ، ثم رفعوا أبواب الأسود بسلاسل تجذب من أعلى ، وانطلقت أنا أعدو نحو التلال ، فى محاولة للنجاة ، ولكن لبؤة تبعتنى، وصفعتنى على وجهى بمخالبها ، التى تركت فى وجهى هذا الأثر ، ودفعنى جنون الرغبة فى الحياة إلى أن ألقى بنفسى فى الهاوية ، فرحت أنحدر فيها ، وأنا أتشبث فى جدارها بأظافرى ، ولكن اللبؤة اللعينة أمسكت ساقى ، وجذبتنى بمخالبها وأنيابها إلى الخارج ، ثم تراجعت لتثب على مرة أخرى ، إلا أننى رأيت حافة ناتئة بارزة ، على جانب الهوة ، فقفزت إليها بغتة ، وأردت التعلق بها ، ولكنها انهارت تحت ثقلى ، وهويت إلى سرداب مظلم ، بقيت فيه نهارين وليلتين ، حتى عثرت على طريق للفرار .

رحنا ندرس الأمر طبقا لروايته ، واستقر رأينا على أن يهبط الكابتن والجاويش وبعض متسلقى الجبال ، إلى حيث يحتفظ (الفنج) بأسودهم ، وأن يرافقهم (جافيت) ، الذى تطوع باصطحابهم ، وأنا

أقف أنا والبقية الباقية من متسلقى الجبال عند نهاية السلم ، حتى إذا ما حان موعد إطعام الأسود ، أعددنا بنادقنا ، وتأهبنا للقتال ..

وفى اللحظة المنشودة ، ارتجفت نفسى ، وأنا أشاهد تلك السلة اللعينة ، التى تحوى طعام الأسود ، والأستاذ (هيجز) ، وهى تهبط إلى حيث الأسود ، التى صم زئيرها الأذن ، وهى تشم رائحة الطعام الآدمى الطازج ..

ولم تكد السلة تلمس الأرض ، حتى وثب منها (هيجز) ، وبدا لحظة وكأنما سيطلق ساقيه للرياح فرارا ، إلا أن كرامته — على الأرجح — قد منعته من ذلك ، فقد توقفت بغتة ، وعقد ساعديه أمام صدره ، بعد أن أرخى قبعته على وجهه ، ووقف ينتظر هجوم الأسود فى بسالة ..

ورفع (الفنج) باب مغارة الأسود ، التى هبت لالتهام فريستها ..

وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا ..

وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ، فى حين قفز (جافيت) إلى حيث الأستاذ ، وجذبه



وفجأة انهالت عليها رصاصاتنا ..
وأصيبت الأسود بالذهول ، فتراجعت فى ذعر ..

إلى حيث السـلم ، فأفاق (الفنج) من ذهولهم ، وانطلقوا يعدون خلفه ، وقد جن جنونهم لضـياع قربان الآلهة ، ولكن رصاصات بنادقنا أعادت إليهم صوابهم ، وجعلتهم يختبئون كالفئران المذعورة ، حتى عاد إلينا الأستاذ ، ونجونا جميعا فى ليلة عيد معبود (الفنج) ..

ويا لها من ليلة !!

* * *

٧ ـ مفاوضة ..

على الرغم من فرحتنا باستعادة (هيجز) ، ظل قلبى يحمل الكثير من الحزن ؛ لأننا لم نستعد ولدى (رودريك) ، الذى ظل أسيرا لدى (الفنج) ، ولقد جلس (هيجز) بيننا أشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، وأخرج غليونه ، الذى ما زال كمنظاره سليما صالحا ، على الرغم مما مر به من أهوال ، وراح يحشو الغليون ببعض ما أعرته إياه من تبغ ، وراحت (مجيدة) تتطلع إليه فى دهشة وحيرة ، وكأنها لا تصدق أن هذا الرث صديق لنا ، فى حين سألنى هو مبهورا :

ـ من هذه الحسناء الفاتنة ؟

أخبرته أنها الملكة ، فوقف احتراما ، وهم بخلع قبعته على نحو غريزى ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أنه قد فقدها فى معمعته ، فراح يتحدث معها بلغة عربية فصحى أدهشتها وأثارت إعجابها ، فرفعت حاجبيها الجميلتين ، وغمغمت :

ـ تهنئاتى بنجاتك أيها الغريب ، لا ريب أنها كانت تجربة شاقة .

هز راسه مؤمنا ، وقال :

– شاقة للغـــاية ، وانا عاجز فى الواقع عن الشكر والاعتراف بجميل هؤلاء الأصدقاء .

والتفت إلى مستطردا :

– واطمئن بالنسبة لولدك يا (آدمز) ، فهو فى خير حـــال ، ولقـــد أصـــبحنا صديقين حميمين ، وسيتزوج ابنة الســـلطان (بارونج) .. وهـــذا السلطان طيب القلب ، كريم النفس ، ولقد اعترض كثيرا على إلقائى للأسود ، ولكنه عجز عن مواجهة سطوة كهنة المعبود ، ولقـــد سمح لى بدراســـة شعائرهم الدينية ، و ...

قاطعته فى لهفة :

– وماذا قال ولدى ؟

أجابنى فى بساطة :

– لقد اســـعده كثيرا أن يعلم أنك تسعى إلى استعادته ، وآلمه أن تلقى كل الهوان والعذاب فى سبيل هذا ، وهو شاب وسيم جميل ، ما زال بجيد الإنجليزية ، وإن غلبت عليها لهجة (الفنج) ، وهو الآن رئيس مرتلى أناشيد المعبد ، وسيتزوج ابنة السلطان قبيل اكتمال القمر فى الشهر القادم بليلة

واحدة ، وستقام الاحتفالات فى (هرمق) ، وكنت أتمنى حضورها ، و ...

قاطعته مرة أخرى :

— وهل يحب هو ابنة سلطان (الفنج) هذه ؟

هز رأسه ، مجيبا :

— إنه لم يرها فى حياته كلها ، ولكنه سمع عن جمالها وبساطتها ، ولعل ابسط مزايا هذا الزواج ، أنه سيضمن عدم إلقائه إلى الأسود .

اكتفيت منه بهذا القول ، الذى جعلنى أنام ليلتى قرير العين ، حتى أيقظنى (هيجز) فى الصباح ، وهو يقول :

— انهض ايها الكسول ، وحدثنى بكل ما لديك عن زهرة (المور) .. الا ترى معى أن لعينيها سحرا عجيبا ؟

جلست على فراشى قائلا :

— دع مشكلة سحر عينيها هذه لكابتن (أورم) ، فهو يحبها .

هتف :

— يحبها ؟!.. إننى أمنحه كل الحق فى هذا ، فلو أننى فى مثل عمره ، لغرقت فى عشقها حتى أذنى .

قلت فى قلق :

ــ اخشى ما اخشاه انهــا قــد وقعت فى حبــه بدورها ، وقد يعرضهما هذا للقتل ، فهــو يخالف قواعد (الأباتى) وعقيدتهم .

هز رأسه متفهما ، وقال :

ــ يبدو انك على حق .. ساتحدث إليه فى الامر جديا ، فانا فى مثل عمر والده تقريبا .

قلت فى انفعال :

ــ فليكن ، ولكن حذار ان تنتبه (مجيدة) إلى هذا .. حذار ..

* * *

دعتنا الملكة إلى مجلسها الكبير مرة اخرى هذا العصر ، ولم نكد ندلف ، حتى فتحت ابواب ضخمة فى نهاية القاعة ، وتقــدم عبرها ثلاثة رسل من (الفنج) ، تدلت لحــاهم البيض على ملابســهم الناصعة ، وهم ينحنون فى أدب جم امام (مجيدة) ، التى اسدلت نقابها على وجههــا ، دون ان يعيروا (جوشيا) أو الكهنة اية عناية أو اهتمام ، ورفعت (مجيدة) كفها ، قائلة :

ــ تكلموا .

تقدم احدهم خطوة ، وقال :

ــ ايا سليلة الملوك وزهــرة (المور) .. إننى احمل إليك رسالة شــفهية من ســلطاننا العظيم (بارونج) .

قالت فى هدوء :

ــ هات ما لديك .

اعتدل وقال مرددا كلمات سلطانه :

ــ يا « أم النجاشى » .. لقد استعنت بالغرباء لإلحاق الأذى بمعبودنا (هرمق) ، وأنــا خادمه ، ولقد قتلوا بعض جنودى ، وانتزعوا من المعبــود قربانه وضحيته ، وقتلوا بعض اسودنا المقدسة ، وعــددا من كهنــة (هرمق) ، كما ابلغنى بعض جواسيسى انك تضمرين شرا لمعبودنا ؛ لذا فانــا ابلغك اننى سابيد (الأباتى) عن آخرهم ، بعــد هذه الأفعال ، وبعد ان ابقيت عليهم طويلا ، ولقد اجلت زواج ابنتى من (مطــرب مصر) بســبب احزانى لمــا حدث ، ولن يذهب حزنى ، وتتــزوج ابنتى ، ويرتد حسامى إلى جرابه ، إلا بعد ان اثار لمعبودى ، ولا ابقى على أثر لـ (الأباتى) ، ولتعلمى ان المعبود (هرمق) قد تنبأ بعد مصرع وحوشه ، وعلى لسان كهنته ، ان راسى سيرقد على ســهول

(المور) ، قبل موسم الحصاد ، وهذا يعنى اننى او من يخلفنى سينام على ارض (المـــور) قبيل أن يأتى الحصاد ، وأمامك الآن احـــد خيارين ، إما ان تخضعى لى ، فيسلم (الأباتى) جميعا ، فيما عدا (جوشيا) ، وعشرة آخرين ؛ لانه حاول اغتيـــالى باسلـــوب لا يتفق مـــع الشرف ، ولأن الآخـــرين لا يستحقون الموت بالسيف ، او ان تقاومى ، فلا يسعنى إلا ان اقتل كل رجالك ، عدا الغرباء ، وعدا (جافيت) ، الذى استحق احترامى وتقديرى ، لما اثبته من جراته ، واستهانته بالموت ، وفى الحالة الأخيرة ستسبى كل نساء (الأباتى) ، فيمـــا عدا (أم النجاشى) ، ذات القلب الكبير » .

انتهى الرسول من تلاوة الرســـالة الشفهية ، وصمت ينتظر الجواب ، فأدارت (مجيدة) عينيها فى وجوه مجلسها ، ورأت الرعب المرتسم عليهـــا ، فقالت :

– ما رايكم يا رجال مجلسى الموقر ؟.. لست أحب ان انفرد بجواب يعنى مصير شعب باكمله .. ما رايك يا عمى (جوشـــيا) .. اتقبل ان تضحى برأسك ورءوس عشرة من القادة ، فى سبيل السلام بيننا وبين (الفنج) ؟

هتف (جوشيا) مستنكرا :

– أتقترح ملكة البلاد أن يشنق عمها ، والأمير الأول لبلادها ؟.. هل توقع العشرة الآخرون أن يسمعوا هذا القول ، من شفتي مليكتهم ؟

أجابته فى هدوء :

– لست أقترح شيئا يا عماه ، وإنما أسألك رأيك فيما يعوضه سلطان (الفنج) .

صاح فى غضب :

– أجيبيه عنى وعن العشرة الآخرين ، وعن كل (اباتى) ، أننا نرفض هذا العرض ، وأننا سنقاتل (الفنج) ، ونبيدهم ، ونهدم معبودهم ومعبدهم على رءوسهم ، لنمهد بأحجاره طرقنا ونبنى معابدنا .. هل تسمعون يا رسل (الفنج) ؟

تطلعوا إليه فى استهتار وازدراء ، وقال كبيرهم :

– نعم .. نسمع ، ويسرنا أن نسمع هذا القرار ، فشعبنا يحب الحروب ، ويفضل حسم خلافاته مع الآخرين بحد السيف ، ولكن عليك أنت أن تعجل بالموت ، قبل أن نحتل (المور) ، فالمشنقة ليست وسيلة الموت الوحيدة عندنا كما تعلم .

شحب وجهه وهم ينحنـــون للملكة ، ويغادرون المكان ، وصاح غاضبا :

— هل ستسمحون لهم بالانصراف ؟.. لابد ان نقتلهم بعد ان هددوا واهانوا امير بلادكم .

ولكن أحدا لم يرفع يده إلى رســـل (الفنج) ، الذين غادروا المكان حاملين القرار ..

قرار الحرب ..

* * *

٨ ـ القـرار ..

لم يكد رسـل (الفنج) يغادرون المكان ، حتى ساده صمت ثقيل رهيب ، تحطم فجأة بجلبة احدثها حديث رجال (الأبـاتى) المختلط ، حيث راحـوا يتحدثون جميعا فى آن واحد ، دون ان يصغى احدهم إلى ما يقوله جـاره ، إلى ان برز الكاهن من وسط الجموع ، وهتف يدعـو الجميع للصمت ، ثم راح يعلن أننا نحن سبب ما أصاب (الابـاتى) ، الذين عاشوا عمرهم كله فى سـلام ، حتى لدغنـا نحن جيراننا (الفتح) ، واشـعلنا نيران الغضـب فى نفوسهم ، فثـاروا وهاجموا وماجـوا ، وقرروا القضاء على (الأباتى) بلا رحمة ..

وفى نهاية خطبته الحماسية الغاضـبة ، اقترح ترحيلنا من (المور) ، حتى يستتب الهدوء من جديد ، وعندئذ شاهدت (جوشيا) يهمس بأمر ما فى اذن أحد أتباعه ، الذى لم يلبث ان صاح :

ـ لا .. لو اننا طردنـاهم ، فسيهرعون إلى (بارونج) ، سـلطان (الفنج) ، بعـد ان سبروا اغوارنا ، وكشفوا أسرارنـا ، وصار بمقدورهم استغلالها ضدنا .. يجب أن نعدمهم على الفور .

ثم جرد حسامه فى زهو ، فقفز إليه الجاويش ، وضرب رأسه بكعب مسدسه ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أعد سيفك إلى غمده أيها الوغد .

ولدهشتنا أطاعه الرجل فى خوف ، فاندفعت الملكة تقول فى انفعال :

ـ يا للعار !.. يا للخسة والنذالة !.. هؤلاء ضيوف ، تركوا أوطانهم وذويهم ، وهبوا لمساعدتنا وخدمتنا ، فهل نكافئهم على هذا بالقتل ؟!.. ثم ما الذى يجديه هذا ؟.. إن الحل الوحيد لنجاتنا من هذا الموقف ، هو أن نهدم معبد (الفنج) ومعبودهم على رءوسهم .. ولتعلموا أن سلطان (الفنج) ، على الرغم من عدائه لنا ، رجل شريف ، يحترم الشجاعة والشجعان ، وستتضاعف نقمته علينا ، لو قتلنا من يحمل لهم كل الاحترام ، ولن يطفىء غضبته ـ حينذاك ـ إلا القضاء على شعبنا كله ، ولو وافقتم على اقتراح قتل الغرباء ، فسأتنازل عن عرشى ، ولتنتخبوا ملكة غيرى .

صاح احد رجالها فى جزع :

ـ هذا مستحيل !!.. انت آخر السلالة النبيلة .

قالت فى حزم :

– اختاروا واحدة من دم غير نبيل ، أو انتخبوا ملكا يوافق على ذبح الضيوف ، وإهدار شرف (الأباتى) وكرامتهم ، واحتمال هذا العار إلى ابد الآبدين .

دفعت كلماتها الخوف إلى نفوس أعضاء مجلسها ، فسألها أحدهم فى قلق :

– ما حل المشكلة فى رأيك إذن يا (أم النجاشى) ؟

رفعت نقابها ، وألقته على رأسها ، وهى تقول فى صرامة :

– الحل الوحيد هو أن تؤلفوا جيشا جرارا ، ينضم إليه كل قادر على حمل السلاح ، وليساعدكم الغرباء ، ويقودكم إلى النصر ، وإلا فلتقبلوا بالذبح، وبأن تروا نساءكم سبايا ، وأن يمحى اسمكم من سجل الشعوب .

صاح أحدهم ، وقد ملكه الحماس :

– كلا .. كلا .

هتفت بحماس أكبر :

– أنقذوا أنفسكم إذن ، فما زال عددكم كبيرا ..

تزودوا بالشجاعة مرة واحدة ، وستجدون انكم قادرون على احتلال (هرمق) نفسها قبل الحصاد .

ثم نهضت ، وغادرت المجلس فى عظمة ووقار ..
وتركت القرار الأخير لشعبها ..

***

انتهى قرار (الاباتى) إلى أن نبقى على راس جيشهم ، وأن يطيعوا أوامرنا الحربية ، على ان يكون لهم مجلس من القادة معنا ، له راى استشارى فحسب ، وقد انساهم رعبهم من القتال كوننا غرباء ، لا ننتمى إلى وطنهم بصلة ..

وبدأت مهمة تكوين الجيش ..

وكانت أشق مهمة بذلناها فى عمرنا كله ..

لقد كان (الاباتى) قوما زراعيين ، لا يمتون للحرب والقتال باية صلة ، ولقد اعتبروا جمعنا للجيش امرا رهيبا ، فراحوا يرشقوننا بالحجارة من نوافذ منازلهم واكواخهم ، ونحن نجمع الجيش ، حتى لم نستطع جمع اكثر من خمسة آلاف رجل بشق الأنفس ..

وكانت مهمة (كويك) الاساسية هى ان يعاون الكابتن طوال ست ساعات يوميا ، على شق

سرداب من نهاية مقبــرة أجداد وملوك (الأباتى) ، وأسفل الصخرة الضخمة التى تفصله عن المعبود ، وحتى التمثال نفسه ..

وكانت مهمة شاقة بحق ..

بل هى مستحيلة ..

ثم تدخلت العناية الإلهية ، وعثرا فى اثناء حفر السرداب على نفق قديم، شديد الانحدار ، يوصلهما إلى هدفهما ، ولكن الزلازل القديمة كانت قد ردمت جزءا منه ، وكان عليهمـا رفع الصـخور ، إلا ان الكابتن قال للملكة :

ــ اخشى ما اخشاه الا يؤدى بنا هــذا إلا إلى مغارة الأسود ، ثم إنه سيحتاج إلى ما يقــرب من ستة اسابيع لرفع الصـخور والأنقاض ، فى حين اننى لا اميل إلى فكرة هدم المعبد والمعبود هــذه ، فهما جزء من جبل شاهق شامخ ، واشك فى ان تنجح متفجراتنا فى نسفه ، والراى عندى أن نجمع جيشا من (الأباتى) ، ونهاجم مدينة (هرمق) فى اثنــاء احتفالات عيد الحصاد ، فلو امكننا هدم اسوارها وابوابها فسنستطيع مهاجمة المعبود ، وهدم المعبد من الداخل .

استمعت إليه (مجيدة) فى اهتمام ، وصمتت طويلا مفكرة ، ثم هزت رأسها ، وقالت :

– سأستشير مجلسى ووزرائى .

قضيت ليلتها تستشير قادتها ، ثم أتت تقول فى سخرية مريرة :

– يقول أعضاء مجلسى الموقر إنها فكرة طائشة ، ولا سبيل لتحقيقها ؛ لأن (الأباتى) لا يلقون بأنفسهم فى التهلكة عبثا ، ثم إنهم يرون أن هدم المعبد والمعبود هو الوسيلة الوحيدة لإنهاء صراعنا مع (الفنج) ؛ ولذلك فهم يأمرونكم بهدم المعبود والمعبد .

تطلعنا إليها فى دهشة لعبارتها الأخيرة ، فأضافت فى مرارة :

– نعم .. إنهم يأمرونكم ولا يرجونكم ؛ لأنهم يعتبرونكم فى خدمتهم لمدة عام كامل ، كما أقسمتم ، وفى هذه الحالة يتحتم عليكم طاعة أوامرهم ، فهذا ما ستنالون عليه أجركم .

بدا الغضب على وجه الكابتن ، فاستدركت فى سرعة :

– هذا ما قرره المجلس ، وما أعلنه نيابة عنهم الأمير (جوشيا) .

احتقن وجه (اورم) ، وقال :

— وهل هذا رأيك ايضا يا سليلة الملوك ؟

تنهدت وقالت :

— ليس امامى سوى هذا ، ما دام (الأباتى) يرفضون القتال .

ران الصمت لحظة ، ثم قال الكابتن :

— لا بأس يا زهرة (المور) .. سنبذل قصارى جهدنا ، ولكن لا تلوموا إلا أنفسكم ؛ لو انتهى الأمر على خلاف ما تحبون ، فالنبوءات سلاح ذو حدين ، ولست أتصور شعبا مقاتلا كـ (الفنج) يغادر بلاده هكذا ، بعد هدم معبـده ومعبـوده ، مهما قالت نبوءاته ، دون أن يهدم بلادكم فوق رءوسـكم .. ولكن ليكن ما شاء مستشاروك الشجعان .

صمت لحظة ، وكأنما يدرس الأمر ، ثم اضاف فى حزم :

— أريد مائتين وخمسين من متسلقى الجبال ، تحت قيادة (جافيت) ، الذى عليه اختيارهم بنفسه ، وسأتولى مع الجاويش (كويك) أمر المتفجرات ، ومد الأسلاك فى السرداب .

أجابته :

— ستحصل على ما تريد .

لم نكد ننصرف من مجلسـها ، حتى سـمعنا (جوشيا) يقول :

— لقد ظهر الغرباء على حقيقتهم .

استدار إليـه الكابتن فى حركة حـادة عنيفة ، جعلته يتراجع مذعورا ، فى حين صاح الكابتن :

— حذار أن ينتهى الأمر إلى أن تظهر أنت على حقيقتك يا (جوشيا) ، فهى أقل مما تتصور بكثير .

لم ينبس (جوشيا) بحرف واحد ، ولم يجرؤ حتى على الاعتراض ، وإنما انسحب وهو يهمهم بعبارات غاضبة مبهمة ..

وعدنا نحن إلى العمل المتصل ..

كان الكابتن والجاويش يتناوبان العمل ليلا ونهارا فى السرداب ، وكلبنا (فرعون) الصق بالكابتن من ظله ، فى رواحه وغدوه ..

ثم حدث ما كنت أخشاه ..

وكادت تقع المأساة ..

كان ذلك ذات ليلة ، خرج فيها الكابتن يلتمس بعض الراحة ، من عناء العمل فى السرداب ، وعهد إلى الأستاذ بالإشراف على العمال بدلا منه ، حتى يأتى الجاويش (كويك) لتسلم نوبتجيته ، وكنت أنا

مشغولا بإحباط عصيان بعض صغار الملاك من الجنود ، الذين فروا من الجندية إلى حقولهم ، لبيع محصولاتهم ، وبعد أن انتهت الملكة من معاقبتهم سارت معي الهوينى ، حتى التقينا بالكابتن ، فأمرت حراسها بالعودة إلى القصر ، وسارت جنبا إلى جنب مع (أورم) ، حتى اختفيا فى أحد الأركان ..

وجلست انتظرهما فى بقعة بعيدة ، وقد شرد فكرى فى ولدى الأسير الحبيس ، حتى تناهى إلى مسامعى وقع اقدام متسللة حذره ، فأشعلت عودا من اعواد الثقاب ، ليسقط الضوء على وجه أحد خدم الأمير (جوشيا) :

وجدت نفسى ارتجف ..

وأتساءل : اكان ذلك الخادم فى طريقه إلى حيث (أورم) و (مجيدة) ، أم كان عائدا من هناك ؟!

وبكل توترى صحت به :

ــ من انت ؟.. وماذا تفعل هنا ؟

هتف فى انزعاج :

ــ الطبيب ؟!

انطفأ عود الثقاب فى تلك اللحظـــة ، ولم أكـــد أشعل آخر ، حتى كان الخادم قد اختفى ، وكأنما انشقت الأرض وابتلعته ..

ولم أخبر الكابتن أو الملكة بما حدث إلا أننى لم أستطع كتمان مخاوفى عن (هيجز) ، الذى عقـــد حاجبيه طويلا مفكرا ، ثم قال :

ـ أغلب ظنى أنهم سيحاولون قتل الكابتن ، ومن الضرورى أن نحذره من النوم بمفرده .

كان هـــذا فى المســـاء ، ولم تكد تشرق شمس الصباح التالى ، حتى طرق (كويك) باب حجرتنا ، وهو يقول فى انزعاج واضح :

ـ الكابتن يريد رؤيتكما .

سأله (هيجز) ، ونحن نرتدى ثيابنا على عجل :

ـ ماذا حدث ؟

أجابه (كويك) فى اقتضاب :

ـ ستريان بنفسيكما .

قطعنا شوطا طويلا فى السرداب المظلم ، حتى

بلغنا أطلال معبد قديم ، ورأينا على ضُوء المصباح الذى أحمله شـبح الكابتن ، وهو يحمل مصباحا آخر ، وإلى جواره جلس (فرعون) يهز ذيله مرحبا بنـا ، وتمتم الكابتن فى خفوت :

ـ اتبعانى .. سأريكما شيئا .

قادنا إلى حجرة جانبية ، أقام فيهـا فراشـه ، وأشار إلى شىء مجاور للفراش ، قائلا :

ـ انظروا .

بدت لنا جثـة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ، وهتفنا فى صوت واحد :

ـ (القط) ؟!

قال الكابتن فى حزم :

ـ لقد تسـلل ليقتلنى ، ولكن (فرعون) انتبه إليه ، وأيقظنى نباحه ، فنجوت من الموت بأعجوبة ، واشتبكت مع (القط) ، واضطررت لقتله .

غمغم (هيجز) :

ـ لقد نال جزاءه ..



بدت لنا جثة رجل قتيل ، وإلى جوارها خنجر ضخم ملوث بالدماء
وتعرفنا على الفور ذلك القتيل ..

ولم يكد الخبر يتنــاهى إلى (مجيــدة) ، حتى هرعت إلينــا جزعة مذعورة ، وتبعها (جوشيا) متظاهرا بالجزع والتعاطف ، وإن لم ينس أن يرمق (فرعون) بنظرة قاسية ناقمة ..

ولم يكتف بالنظرة للأسف ، ففى مســاء اليــوم نفسه مات (فرعون) ..

مات مسموما ..

***

٩ ـ الخيـانة ..

منذ ذلك الحادث احاطتنا الملكة بنخبة مختارة من حراسها الأوفياء ، وبرعاية فائقة ، حتى اننا لم نكن نخطو خطـوة واحـدة من دون الحراس ، وحتى طعامنا وشرابنا لم نكن نتناولهما قبل ان يتذوقهما شخص مسـئول ، حتى لا يكون مصيرنا كمصير (فرعون) المسكين ..

وكان اكثرنا ضيقا وتبرما بتلك الحراسة المكثفة هى الملكة نفسها ، وكذلك الكابتن ، فعلى الرغم من ان الحراسـة تكفل الا تقطع رقابنا فى اثنـاء النوم ، والا نقضى نحبنا بالسم ، إلا أنها فى الوقت نفسه تضع قيودا يصعب تجاوزها ، بالنسبة للقاء العاشقين ..

ولكن هـذا لم يمنع من حدوث بعض الحوادث الغامضة المثيرة للشك ..

فعندما كنا نجلس ـ ذات مرة ـ عند سطح التل ، هوت فوقنا صخرة ضخمة ، كادت تسحقنا سحقا ، لولا ان ارتطمت بنتوء صغير فى هبوطها ، فانحرف مسارها ، ونجونا باعجوبة ..

ومرت أخرى ، سقطت علينـا بعض الرماح ، ونحن نجـول فى الغابات ، ولقى جـواد (هيجز) مصرعه ، إلا أننـا لم نجـد أثرا لمخلوق واحـد فى الأدغال كلها ..

وذات يوم ، هرع راعيا غنم إلى القصر الملكى ، وقالا إنهما كانا يرعيان بعض الأغنام ، بالقرب من الصخور الغربية ، على مسيرة عدة كيلومترات ، عندما فاجأهما خمسة عشر من جنـود (الفنج) ، وأحكموا وثاقهما ، وقالوا لهما فى سخرية :

— أبلغا المجلس والملكة والغرباء أنه من الأفضل أن يسرعوا بتدمير معبودنا ، قبل أن تتحقق النبوءة ، ويتم سحق (الأباتى) ، وسبى نسائهم ، واحتلال (المور) .

ثم تركوهما موثقين ، حتى حل رعـاة الأغنـام الآخرون وثاقهما ، فأسرعـوا إلى القصر لإبـلاغ الرسالة ..

وهرع فريق من الجيش إلى تلك البقعة ، يتفقد المكان ، ويبحث عن أى أثر تركه (الفنج) خلفهم ، ولكن دون أن يسفر هذا عن شىء ..

وتفجر عندئذ سؤال جديد ..

اى طريق سلكه جنود (الفنج) إلى أرض (المور) ، ليبلغوا رسالة سلطانهم ؟!

والمؤسف أن الأمطار قد هطلت بعد هذا الحادث، ومحت اية آثار اقدام ، قد يكون الأعداء قد خلفوها وراءهم ..

ولم يعد امامنا سوى افتراض واحد ..

ان (الفنج) قد كشفوا طريقا خفيا بين (هرمق) و (المور) ، وانه سيكون وسيلتهم للتسلل إلى البلاد وغزوها مستقبلا ..

وتضاعف الفزع فى النفوس ، مع انتشار القصة وانتقالها من فم إلى فم ، وبدا الأمر اشبه بامة حديثة ، تخشى ان يهبط عليها العدو بغتة بالمظلات ، ويحتل ارضها ، وهى فى سبات عميق ..

وبسرعة تبخرت الثقة بالنفس ، وانهار الزهو باسوار (المور) الصخرية ، وانقلب الحديث إلى وصف جيوش (الفنج) المدربة ، ولم يلبث الرعب ان ملأ النفوس ، وارتفعت بعض الأصوات تطالب بمحاكمة مستشارى الملكة ، الذين ساقوا البلاد إلى هذه الحالة من الضعف ، بسياسة السلام الهزيلة ، والعزوف عن الحروب ..

وافل نجم (جوشيا) كثيرا ..

وبقـــدر ما هبط نجم (جوشيا) ، ارتفع نجم (مجيدة) ، التى طالمـــا نادت بضرورة تكوين جيش قوى مدرب ..

ولم يعد امام شعب (الأباتى) المسكين سوى ان يتضرع إلى إلهه طالبا الرحمة ، وســـائلا إيـــاه أن يمنحهم القوة على مواجهة أعدائهم ..

واصبحنا نحن أمل (الأباتى) الوحيد فى النصر ، وتضاعف احترامهم لنا مـــرات ومرات ، حتى أن (جوشيا) نفسه صار ينحنى لنا كلما لقينا ، وصار الحفاظ على حياتنا هو الشغل الشاغل للجميع ، فانقطعت المؤامرات والدسائس ، أيا كان مصدرها ، وواصلنا نحن العمل ..

واخيرا انتهينا من العمل الشاق ، وتم إعداد كل شىء للقتال ، واتفقنا على إشعال فتيل الحرب ليلة اكتمال البدر ، وهى الليلة التى ابلغنا جواسيسنا بأن السلطان سيقيم فيها حفل زواج ابنى وابنته فى (هرمق) ، وأنه قد استعد لبدء الهجوم على (المور) ، فور انتهاء مراسم حفل الزفاف ..

وفى ذلك اليوم أعددنا كل شىء ، فيمـــا عدا سد الممر الذى يصل ما بين مغارة مقابر ملوك (الأباتى) ،

وتمثال إله (الفنج) ، وكان الكابتن قد مد فيه كل أسلاك المتفجرات ، وجعل نهاية الأسلاك جميعها فى حجرته ، حيث يضع فراشه ، وحيث لقى (القط) مصرعه ، وأقام حراسة مشـددة على الحجرة ، خشية حدوث أية خيانات . .

وفى الرابعة تقريبا أتم العمال عملهم فى الممر ، وفجأة ظهـر (جافيت) بادى الاضطراب ، وبلغ موقعنا حول البطاريات الكهربية وهو يلهث ، فهتف به الكابتن فى قلق :

ــ ماذا حدث ؟ . . هــل كشـف (الفنج) أمر الأسلاك وقطعوها ؟

أجابه (جافيت) فى انفعال :

ــ بل حدث ما هو أسوأ يا سيدى . . إن الأمير (جوشيا) يعد خطة لاختطاف زهرة (المور) وسليلة الملوك .

صعقنا الخبر ، وهتف الكابتن غاضبا :

ــ ماذا تقول يا رجل ؟ . . قص علينا الأمر كله .

التقط (جافيت) أنفاسه ، وهو يقول :

ــ إن لى صديقا وقريبا ــ ولن أبوح باسمه ــ يعمل فى خدمة الأمير ، ولقد شربنا معا اليوم بضعة

اقداح من الخمر ، حلت عقـدة لسـانه ، فإذا به يخبرنى مزهوا بوجود مؤامرة لاختطاف الملكة .
امسكه (اورم) من كتفيه ، وصاح به فى قوة :
ـ متى وكيف ؟
هز (جافيت) راسه فى انفعال ، وقال :
ـ لست ادرى ، هذا كل ما امكننى معرفته .
سألته فى حيرة :
ـ ولكن ما الذى يدعوه لاختطافها ؟
اجاب (جافيت) :
ـ ليصبح اكبر رجل فى (المور) .
ران علينـا صمت ثقيل ، صـنعته دهشـتنا واستنكارنا لما سمعناه ، وسأل الكابتن (جافيت) فى انفعال :
ـ الم تعلم متى يتم ذلك تقريبا ؟
تردد (جافيت) لحظة ، ثم اجاب :
ـ بعد خمسة ايام تقريبا .
تنهد الكابتن فى ارتياح ، وقال :
ـ يوم السبت بعيد والحمد لله .
ثم سأله مرة اخرى فى اهتمام :
ـ قل لى يا (جافيت) : هل صديقك هذا صادق دوما ؟

هز (جافيت) رأسه نفيا ، وقال :

ـ إنه يكذب أحيانـــا ، ولكننى رأيت ضرورة إخباركم بما سمعت .

ربت الكابتن على كتفه ، وقال :

ـ حسنا فعلت .

انصرف (جافيت) وتوتره يلازمه ، فى حين التفت إلينا (أورم) ، وسألنا :

ـ ما رأيكم ؟

أجابه (هيجز) فى ضجر :

ـ إنهـــا بعض الشائعات ، التى تنتشر فى كل مكان .

قلت بدورى :

ـ أوافقك على هذا يا هيجز ، فلو أن صديق (جافيت) يعلم شيئا ، لما أكتفى بهذا القول المبهم ، ونصيحتى الا تذكروا الأمر لـ (مجيدة) ، حتى لا نثير قلقها بلا طائل .

هز الكابتن رأسه متفهما ، ثم التفت إلى (كويك) يسأله :

أجابه (كويك) بلا تردد :

ـ لست أوافقهمـــا إلا فى ضرورة عدم إزعـــاج سليلة الملوك بذكر الأمر ، ولكننى أثق فى أن (جافيت)

رجل امين ، وغريزته تؤكد له ان شيئا ما يحاك ضد مليكته .

ساله الكابتن فى اهتمام :

ــ ماذا تقترح إذن ، لو ان هذا صحيح ؟

امسك الجاويش عصا قصيرة ، وراح يخط بها بعض الخطوط على ارض الحجرة ، وهو يقول :

ــ هذا رسم تخطيطى لحجرة الملكة الخاصة ، هنا حجرتها ، وهنا مخدع الوصيفات والخادمات ، ثم جدار مرتفع ، يعقبه خندق عميق ، ولكن هناك ممر بعرض مترين ، يصل ما بين حجـرة الحارس ومخدع الوصيفات ، والرأى عندى ان نقضى ليلنا انا والأستاذ فى حجرة الحارس ، منذ هذه الليلة ، خشية ان يتم اختطافها قبل الأوان .

درس الكابتن الأمر لحظات فى صمت ، ثم قال فى حزم :

ــ فليكن ، ولكن ما راى الأستاذ (هيجز) ؟

قال (هيجز) :

ــ اقتراح الجاويش رائع بحق .

وصمت لحظة ، ثم اضاف :

ــ معذرة لخروجى عن النقاش ، ولكننى أحب

ان اصعد إلى الصخرة ، لأرقب ما يحدث ، عندما تنشب المعركة .

هز الكابتن كتفيه ، وقال :

ــ لن تــرى ســـوى وميض والتماعات فى السماء .. والأفضل ان تصحب الجاويش إلى حجرة الحارس ، وتصطحبان معكما هاتف ميدان ، حتى يمكنكما الاتصال بنا ، وإبلاغنا بما يحدث اولا فأولا .

ضرب الجاويش كعبيه بعضهما ببعض ، وقال :

ــ اية اوامر اخرى يا سيدى ؟

قال الكابتن :

ــ لا يا (كويك) .. انت تعلم اننى ســأشعل اللغم فى تمام العاشرة ، فلقد ابلغنا جواسيسنا أن حفل الزفاف سيقام بعد ظهور البدر بثلاث ساعات كاملة .

أيد (هيجز) حديثه ، قائلا :

ــ هذا صحيح .. لقد سمعتهم يؤكدون هذا ، وانا فى سجنى .

قال (اورم) :

ــ لهذا السبب لن أشعل اللغم قبل العاشرة ، مهما كانت الأسباب ، حتى لا يصاب (رودريك) بأى

ضرر ، وعليكما أن تتصلا بى وبالطبيب فى التاسعة والنصف .

تبادلنا التحية ، وصحبت أنا (هيجز) و (كويك) إلى حجرة الحارس ، وسألنى (كويك) هامسا :

ـ أتؤمن بالحاسة السادسة أيها الطبيب ؟

أجبته وأنا فى حيرة من سؤاله :

ـ بالطبع .. لماذا تسأل ؟

ابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ شىء ما فى أعماقى ينبئنى أننى لن أراكم مرة أخرى بعد هذه الليلة ، وأن نهايتى قد حانت .

حاولت تهدئته ، قائلا :

ـ إنه بعض القلق يا (كويك) ، و ...
قاطعنى فى هدوء :

ـ عدنى ، لو تحققت مخاوفى ، أن تعنوا بأبناء أخى الراحل ، وأن تخبروهم أن عمهم (صمويل كويك) قد قام بواجبه حتى النهاية .

شعرت فى أعماقى بأن مخاوفه على حق ، حتى

أن صوتى قد ارتجف ارتجافة خفية ، وأنا أقول فى حزم :

ـ أعدك يا (كويك) .

لم ينتبه (هيجز) إلى حديثنا ، فقد كان مشغولا بالتطلع إلى معبود (الفنج) ، الذى سيهوى قبل مطلع الفجر ..

أو نهوى نحن ..

من يدرى ؟!

* * *

١٠ ـ المعجـزة ..

عدت إلى الكابتن ، الذى بقى وحيدا فى حجرته الشـبيهة بالـكهف ، وتـركت (جافيت) يحرس الأسلاك ، ولم يكـد الكابتن يرانى حتى ابتدرنى قائلا :

ـ قلبى يحدثنى بأن (مجيدة) معرضـة لشر مستطير ، وأن قصة (جافيت) حقيقية ، ولقد رجتنى (مجيدة) ان تبقى الليلة فى رفقتنا ، ولكننى رفضت ، خشية ان يصيبنا مكروه عند انفجار اللغم ، فتصاب معنا ، و ...

ارتفع رنين الهـاتف الميدانى فى تلك اللحظـة ، فاختطف الكابتن سماعته فى لهفة ، وهتف :

ـ ماذا حدث ؟

اجابه (هيجز) فى بساطة :

ـ لا شىء ، فقـط اردت أن أخبـركمـا أننى والجاويش فى حجرة الحارس ، ويبـدو أن القصر خـال تماما ، إلا من ذلك الحارس ، فلقد خـرج الجميع لرؤية الألعاب النارية ، حتى الوصيفات ،

ولقد حاول الحارس منعنا من البقاء فى حجرته ، بحجة أن هذا يتعارض مع أوامر الأمير (جوشيا) ، بشأن عدم اقتراب الغرباء من سليلة الملوك ، ولكن (كويك) صفعه صفعة جعلته يعدو كالملدوغ ، صارخا ومهددا بإبلاغ الأمير ، و . . . .

قطع حديثه بغتة ، على نحو اقلقنا ، فهتف به (أورم) :

— ماذا حدث عندك ؟

أجابنا صوته بعد لحظات :

— زهرة (المور) هنا ، وتريد أن تتحدث إلى الكابتن بنفسها .

انسحبت فى صمت ، لاترك لهما لحظات ، ينعمان فيها بمناجاة الحب والعشق ، ليبدد كل منهما توتره ومخاوفه ، وجلست خارج الحجرة صامتا ، حتى فوجئت بـ (جافيت) يهرع إلى ، وقد أخذ الرعب منه مأخذه ، فصحت به :

— ماذا أصابك ؟.. هل قطعت الأسلاك ؟

أجابنى وهو يلهث رعبا :

— لا ، وإنما رأيت شبح أحد ملوك (المور) فى الكهف .

أنهى (أورم) حديثه على الفور ، وتبادلنا أنا

وهو نظرة ذات مغزى ، ثم هب يسال (جافيت) :

ــ هل قال شيئا ؟

اجابه (جافيت) وهو يرتعد :

ــ قال الكثير ، ولكننى لم افهم سوى القليل ، فهو يتحدث بسرعة ، وبلغة تختلف عن لغتى كثيرا ، ولكن اظنه سألنى كيف يجرؤ قومى على هدم معبوده ، فاجبته باننى مجرد خادم مطيع ، وهنا قال بأن (هرمق) سياتى إلى (المور) ، ويصفى حسابه مع (الأباتى) والغرباء .

تبادلنا نظرة أخرى ، وغمغم الكابتن :

ــ أظنها مجرد أوهام ومخاوف .

تطلعت إلى ساعتى ، وقلت فى توتر :

ــ ليس لدينا وقت للتحقق منها ، فقد بقيت دقائق ثلاث فحسب على العاشرة .

اتخذ كل منا مجلسه فى سرعة ، ونسينا أو تناسينا أمر ذلك الشبح ، وراحت الثوانى تمضى بنا كالدهور ، حتى صاح الكابتن :

ــ اربع ثوان .. ثلاث .. اثنتين .. واحدة .

ثم ضغط زر التفجر ..

وانفتحت ابواب الجحيم على مصراعيها ..

* * *

كان ارتجاجا لم اعهد مثله من قبل ، القانا أرضا فى عنف ، ورأينا صخرة كبيرة تهوى لتسد الباب أمامنا ، وسمعنا أخرى تسقط بالقرب منا ، فتدك الأرض دكا ، وانهالت الاتربة فى غزارة ، حتى هدأت الأمور ، فنهضت التقط سماعة الهاتف ..

وهنا تناهى إلى مسامعى دوى طلقات نارية ، عبر أسلاك الهاتف ، وسمعت صوت (هيجز) يهتف :

ـ حذار يا (كويك) .

واعقبه صوت (كويك) يصيح :

ـ اطمئن .. لقد أطلقت النار عليه ، ولن يمكنه إطلاق سهم آخر .

وارتفع صوت (مجيدة) تهتف :

ـ أين الكابتن ؟.. أريد أن أتحدث إليه ..

ناولت السماعة إلى (أورم) فى سرعة ، وسمعتها تستطرد :

ـ تعال بسرعة يا (أورم) .. لقد هاجمنا رجال (جوشيا) .. أسرع قبل أن يفتكوا بنا ، وأن ..

وهنا انقطع الاتصال ، وأيقنا من أن أحدهم قد قطع أسلاك الهاتف ، فألقى (أورم) السماعة من يده ، وهتف :

ــ اللعنة !!.. يا للخسة والخيانة !!

ووثب إلى البـــاب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة التى تعترضه فى يأس ، ثم لم يلبث أن راح يدور فى الحجرة كالمجنون ، ويضرب الصخرة بكتفيه ، حتى صحت به :

ــ أتريد أن تقتل نفســـك ؟.. اهدأ واتركنى أفكر .

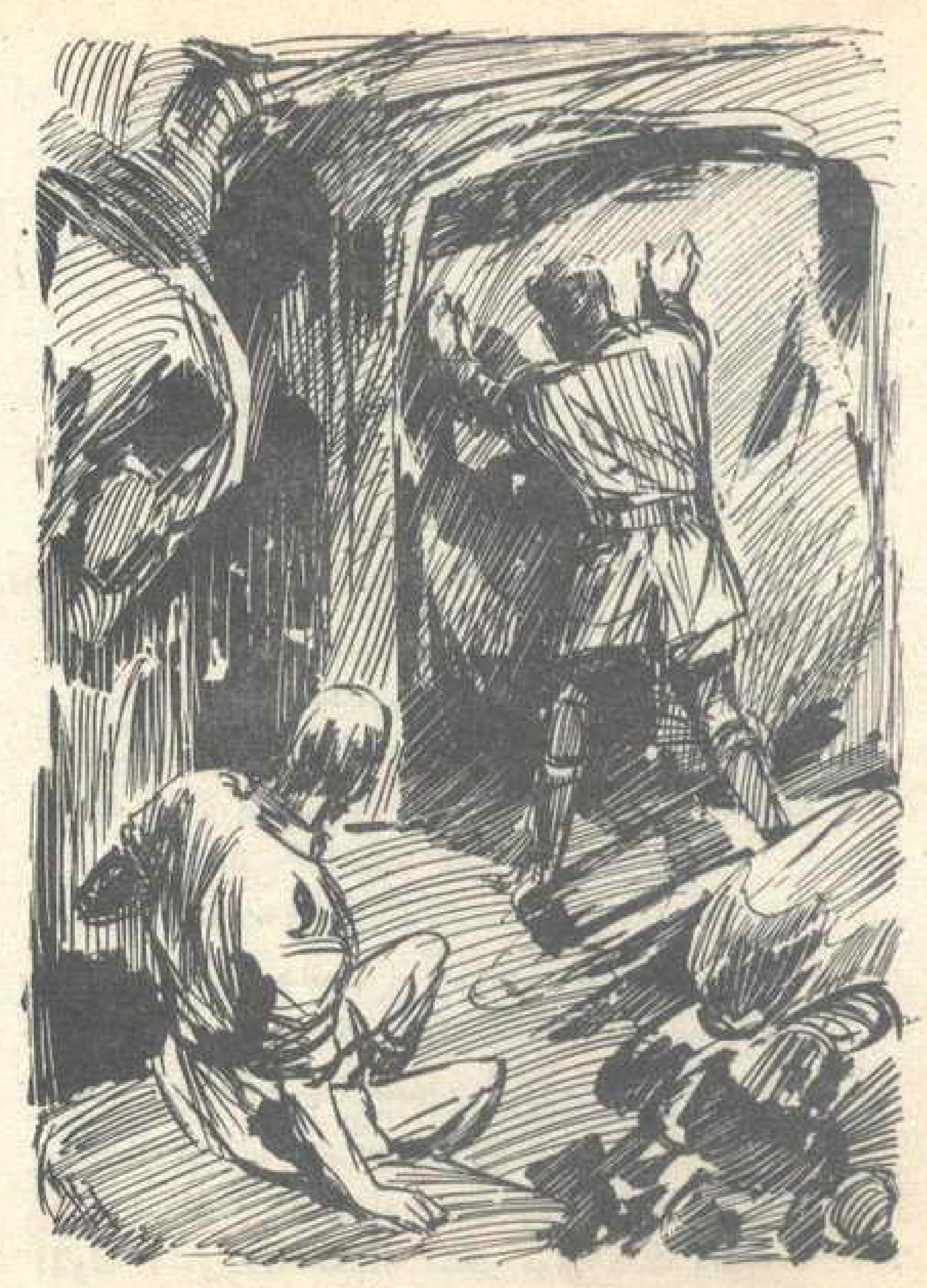
ولكنه لم يبال بحديثى ، وإنما هتف بـ (جافيت) :

ــ احضر هذه المنضدة إلى هنا يا (جافيت) ، فهناك فراغ ضيق بين الصخرة والحـــافة العلوية للباب ، ولعلنى أستطيع عبوره .

نجحت فكرته بالفعل ، وأمكنه عبور تلك الفرجة ، وتبعته أنا و (جافيت) ، ورحنا نعدو نحن الثلاثة نحو القصر ، ولم نكد نجتاز ردهته حتى رأينا بقع الدماء على الأرض ، فصاح (أورم) فى هلع :

ــ أسرعوا .. أسرعوا .

عبرنا الممر الذى يوصـــل إلى مخـــدع سليلة الملوك ، ووجدنا أنفسنا نسير فوق جثث ودماء ،



وثب إلى الباب كليث غاضب ، وحاول أن يزحزح تلك الصخرة
التي تعترضه في يأس ..

حتى بلغنا حجرة الحارس ، فانعقدت السنتنا من هول المشهد ..

كانت الحجرة مغطاة بجثث تسبح فى بحر من الدماء ، وكلهـا ترتدى الثيـاب الرسمية ، التى اختارها (جوشيا) لجنوده ، وعلى مقربة جلس (كويك) على مقعد ، وهناك سهم يخترق ظهره ، فى حين وقفت الملكة إلى جواره ، تدلك وجهه بقطعة من القماش المبتل ، وإلى جوارهما وقف (هيجز) والدماء تنزف من جراحه ، وخلفه ثلاث وصيفات يبكين وينتحبن ..

ولم يكد بصر (كويك) يقع علينا ، حتى ابتسم ابتسامة راضية ، على الرغم من الدماء التى تنزف من راسه فى غزارة ، وأسلم الروح ..
وضم الكابتن (مجيدة) إليه ، وهتف فى ارتياع :
ـ ماذا حدث ؟
اجابه (هيجز) ، والحزن يثقل قلبه وصوته :
ـ سمعنا دوى الانفجار فى تمام العاشرة ، ولم نكد نهم بالخروج ؛ لرؤية ما حدث ، حتى قدم (جوشيا) ؛ ليعلن تدمير (هرمق) ، وطلب ان ترافقه سليلة الملوك إلى قصره ؛ لأسباب سياسية هامة ، وأصر

على ذلك إصرارا دفعنا إلى طرده ، ولم يكد يغادرنا حتى انهالت علينا السهام ، وانقض علينا جمع كبير ، ينادى بضرورة قتلنا وانقاذ الملكة ، ونشب عراك بيننا وبينهم ، وابلى الجاويش بلاء حسنا ، حتى ولى المهاجمون الأدبار ، بعد ان اصابوا (كويك) بضربة سيف فى راسه ، وعلى الرغم من إصابته راح يقاتل كالاسد ، حتى اطمأن إلى سلامة الملكة ، فارتمى خائر القوى ، إلى ان خر صريعا امامكما .

قال هذا ودموعه تنهمر فى غزارة ، فاخذنا نهدىء من نفسه ، ونفوسنا تبكى ألما وحسرة على (كويك) ، وحملنا جثة هذا الأخير إلى مخدع الملكة ، التى أصرت على ان يوضع من دافع عنها حتى الموت على فراشها ، وراحت تضمد جراح (اورم) ، وهى تقول فى توتر :

— لم نعد بمأمن هنا .. لقد فشلت مؤامرة عمى لاختطافى ، ولكنه لن يلبث أن يعود بألف من أعوانه .

سألها الكابتن مستنكرا :

— ماذا تعنين ؟.. هل نهرب من (المور) ؟

أجابته فى يأس :

ـ وكيف لنا أن نفعل ، ورجـــال (جوشيا) يحرسون الطــريق ، و (الفنج) ينتظرونـــكم فى الخارج .. إن (الأباتى) يكرهونكم ، وسيقتلونكم بلا تردد ، بعــد ان اتممتم ما ابقوا على حياتكم من اجله .. إنهم شــعب ناكــر للجميل ، وخطئى أن دفعتكم للمجىء إلى هذا البلد العاق .

وانخرطت فى بكاء حار ، فجثا (جافيت) عنــد قدميها ، وقال :

ايا سليلة الملوك ، استمعى إلى خادمك المخلص الأمين ، فهناك ، على مسيرة خمسة كيلومترات ، يوجد خمسمائة من رجالك المخلصين ، يعملون تحت قيادتى ، ويفتدونك بالـــروح والـــدم ، فهلم نلحق بهم .. يمقتون (جوشيا) أشد المقت .

تطلعت (مجيدة) إلى الكابتن لحظات ، وكأنما تسأله المشورة ، ثم قالت :

ـ فكرة جيدة .. هلم بنا إلى هناك .

ولم تمض عشر دقائق حتى كنا نختفى فى معاطف ثقيلة ، ونختلط بالجموع المحتشدة ، التى اجتمعت فى الميــدان الكبير ، وراحت تشــير إلى صــخرة تتوسطه ..

صخرة على شكل اسد ..

وامام ذهولنا ودهشتنا ، بدا لنا معبود (الفنج) واضحا ، وقد قذف به الانفجار إلى ارض (المور) ، وبدا (جافيت) شديد الرعب ، وهو يتطلع إلى هذا المشهد ، فربت (هيجز) على كتفه ، قائلا :

ـ لا ترتجف على هذا النحو يا رجل .

التفت إليه (جافيت) ، وقال فى ارتياع :

ـ الم تفهم ما يعنيه هذا يا سيدى ؟.. لقـد حلت اللعنـة على (الأباتى) ، وبدلا من ان يرحل (الفنج) بعيدا ، فإنهم سيتبعون معبودهم إلى هنا.

وكان (جافيت) على حق ..

لقد انعكست الآية ، وصار على شعب (الأباتى) ان يقاتل من أجل حياته وحريته ..

أو يموت ..

***

١١ ـ عودة الغائب ..

لم نكـد نبلغ موقع جيش (جافيت) الصغير ، حتى لمسنا الفارق الهائل بين الفـرق المنظمة ، وسائر شعب (الأباتى) ، فقـد اعترضنا فـور اقترابنا من موقع الجيش جندى حراسة ، وشهر سيفه فى وجوهنا ، هاتفا فى صرامة :

ـ توقفوا ، واكشفوا عن شخصياتكم .

اجابه (جافيت) فى هدوء :

ـ إننى رئيسك .

قال الحارس فى حزم :

ـ معـذرة يا سـيدى ، ولكننى اصر على ان تكشفوا وجوهكم .

كشف (جافيت) وجهه للحارس ، الذى حياه فى احترام ، وكشفنا وجوهنا بدورنا ، فلم يكـد الحارس يرى وجه (مجيدة) حتى خـر ساجدا ، وهو يهتف :

ـ لبيك يا (أم النجاشى) وسليلة الملوك .

اجابته فى ترفع ، شف عن طبيعة الدماء الملكية ، التى تسرى فى عروقها :

ـ استدع فرقتك كلها ؛ لأبلغها أوامرى .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى جثا امامها خمسمائة رجل موفورى القوة والصــحة ، ثم انتظموا فى صفوف منسقة ملتزمة ، فوقفت هى أمامهم تقول :

ــ أيها الرجال المخلصــون ، لم يكد معبــود (الفنجٌ) ينهار الليلة ، حتى اتى عمى (جوشيا) ينشد قتلى ، او سجنى فى قلعته عند البحيرة .

سرت همهمة غاضبة مستنكرة بين الجنــود ، فأضافت فى حزم :

ــ الأسوا هو اننى لم اكد ارفض ذلك ، حتى اصطحب عمى ثلة من رجاله ، لانتزاعى عنوة ، ولكن الأجانب الذين يخدموننى هبــوا لنجدتى ، ودارت بينهم وبين جنــود عمى معركــة حاميــة الوطيس ، نجح خلالها الأجانب فى إجبار قوات عمى على الانحساب ، وعمى يجمع الآن أعوانه ، ليعيد الكرة .

تعالى صياحهم إلى عنان السماء ، وهم يهتفون :

ــ فداك دماؤنا وأوراحنا يا سليلة الملوك .. مرى نطع .. نحن رهن إشارتك يا زهرة (المور) .

ورفع أحد ضباطهم سيفه عاليا ، وهو يهتف :

ــ فلنسحق راس الأفعى .

ولكنها صاحت مستنكرة :

ـ أنشن حربا أهلية ؟.. أنشعل نيران الفتنة وسط شعب يواجه عدوا مشترك ؟.. ثم كيف لكم بمواجهة جيش (جوشيا) الجرار ؟

سألها الكابتن :

ـ ماذا تقترحين إذن ؟

اعتدلت فى اعتزاز ، وهى تقول فى حزم :

ـ أن نعود مع هـذا الجيش الصـغير إلى القصر ؛ لنقف جميعا فى مواجهة الأعداء .

غمغم (هيجز) فى ألم :

ـ من الأفضل أن نسرع إذن ، فساقى تؤلمنى للغاية ، وأكاد أسقط نائما بين أيديكم .

رفعت (مجيدة) ذراعها ، وهتفت :

ـ هيا يا رجال .. حلو الخيام ، واستعدوا للسير .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى تناهت إلى مسـامعنا جلبة ، وأبصرنا رجلا يقوده بعض حراس الجيش الصغير إلينا ، وخيل إلى فى البداية أنه جاسوس ، ثم لم ألبث أن انتبهت إلى ملابسه الغريبة ، وثوبه الفاخر ، وتلك القلادة الذهبية ، التى تزين عنقه ،

فرفعت عينى إلى وجهـــه ، وانطلقت من أعماقى شهقة قوية ، وأنا أهتف :

ـ ولدى ؟.. (رودريك) ؟!

وفى اللحظــة التالية كان كل منــا بين ذراعى الآخر ، يغمر وجه صاحبه بالقبلات ، والتف حولنا الجميع فى سعادة لعثورى أخيرا على ابنى الضائع ، وهتفت به فى فرحة غامرة :

ـ كيف جئت إلى هنا ؟

أجابنى فى سعادة :

ـ على قدمى يا ولدى .

وهتف به (هيجز) :

ـ كنا نحسبك قد تزوجت الليلة يا (رودريك) .. أين زوجتك ؟

أطلق (رودريك) تنهيدة حارة ، تحمل الكثير من الخلاص والارتياح ، وهو يقول :

ـ لم يتم الزواج لحسن حظى .. لقد سارت المراسم سيرها الطبيعى ، وبقى أن يضع الكاهن عصاه على رأسينا ، ليعلننا زوجا وزوجة ، وهنا ارعدت الدنيا ، واهتزت الجبال ، وســـاد الهرج والمرج ، وراح (الفنج) يعدون فى كل مكان ، وهم يصرخون : « سحر الرجل الأبيض قتل معبودنا ،

الذى لم يبرح مكانه منذ الخليقة .. إنه سحر الرجل الأبيض .. » ، وراح سلطان (الفنج) يشق ثوبه الملكى ، ويصرخ : « اجـــروا ايهـــا (الفنج) .. هاجروا .. لا يجب ان يبقى واحد منـــا فى هــذه الأرض ، بعد موت معبودنا . » ، وراحت خطيبتى ، ابنة السـلطان ، تشق ثيابهـــا بدورها ، وتلطم خديها ، وراحت تعدو مع الجموع الراكضة نحو الشرق والجنوب ، وقد اصيب الجميع بذعر هائل ، لم ار له مثيـــلا فى عمـــرى كله ، ولكننى انتهزت الفرصة ، وانطلقت انا نحو الغرب ، وقادنى ممر ضيق إلى هنا ، فأمسك بى هؤلاء القوم .

ضممته مرة اخرى إلى صدرى ، وانا اقول :

ــ مســكين انت يا ولــدى .. استجرت من الرمضاء بالنار .

سالنى فى دهشة :

ــ ماذا تعنى يا ابى ؟

اجبته فى حزن :

ــ لقد تطاير رأس معبود (الفنج) مع الانفجار ، وهو يرقد الآن فى سهول (المور) ، وهذا يعنى أن (الفنج) سيسعون إليــه ، وســنقع جميعـــا فى قبضتهم .

هز رأسه ، وقال :

— لست أظن هذا يا والدى ، فـ (الفنج) يجهلون ما أصاب معبودهم ، إلا أنه قد نسف نسفا ، ولقد هجروا (هرمق) إلى الشرق ، فور حدوث هذا ، ولن يكفــوا عن ابتعادهم ، ما داموا يجهلون أن رأس المعبود هنا .

درست كلماته فى رأسى لحظات ، ثم قلت :

— أرجو أن تكون محقا يا ولدى .. أرجو ذلك من أعماق قلبى .

ثم ابتسمت ، مضيفا فى حنان :

— والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك .

استقبلته الملكة فى حفاوة بالغــة ، وانحنى هو يلثم أصابعها ، وهو يغمغم مفتونا :

— إنها أجمل إمرأة رأيتها فى عمرى كله يا أبى .

ولم يكن أول من تفتنه الملكة ..

❋ ❋ ❋

عدنا أدراجنا إلى (المور) ، على رأس جيش (جافيت) الصغير ، واعترضتنا حامية صغيرة ، على مشارف المدينــة ، ولكن الملــكة أعلنت عن شخصيتها ، فأفسح لنا رجال الحامية الطريق ،



ـــ والآن تعال أقدمك إلى سليلة الملوك .
استقبلته الملكة فى حفاوة بالغة .

وابتعدوا على صـــهوة جيادهم ، يسبقوننـــا إلى المدينة ..

ولم نكد نبلغ المدينة حتى فوجئنـــا بأن أخبـــار الأسير الأبيض ، الذى عاد من بلاد (الفنج) على قدميه ، قد سبقتنا ، فأعلن (جافيت) أن (الفنج) قد هاجروا إلى الشرق ، وهم يجهلـــون ما حدث لمعبودهم ، وبددت هذه الأخبار حزن (الأباتى) ، وأشاعت بينهم الفـــرح ، وأطلقته من صدورهم ، فراحوا يرقصون ويهتفون فى الطرقات ، ويهنئون أنفسهم على شجاعتهم ، التى دفعت (الفنج) للفرار من وجوههم والهجرة إلى الشرق !! ..

ومضينا نحن ، وسط هـــذه الاحتفـــالات ، إلى القصر ، دون أن تلفت إلينا الأنظـــار ، ولكن فجأة اعترضنا جيش ضخم ، من ألف رجل ، وصـــاح قائدهم فى (جافيت) :

ـ كيف غادرتم موقعكم ؟.. من أمركم بهذا ؟

أجابه (جافيت) فى حزم :

ـ أمرنى من لا أملك مخالفة أوامره .

قال القائد فى صرامة :

ـ لو أنك تقصد البيض فأنت خاسر ؛ فلدينا

أوامر من أميرنا وقائدنا (جوشيا) بإلقاء القبض عليهم .

قال (جافيت) فى صوت جهورى :

ـ لقد أمرتنى سليلة الملوك بحملهم إلى قصرها.

أجابه القائد فى صرامة وحدة :

ـ سليلة الملوك لا تملك إصـــدار قرار ، ما لم يقره المجلس .

وهنـــا كشفت (مجيدة) النقاب عن وجههـــا ، وصاحت فى غضب :

ـ اقبضوا على هذا القائد أيها الضباط ، بأمر مليكتكم ، واقطعوا رأســـه ، وارسلوه إلى أميره (جوشيا) ، الذى دفعه إلى هذا .

شحب وجه القائد ، عندما رأى وجه (مجيدة) ، والقى نفسه عن جواده ، وركع عند قدميها يمسح وجهه فى ذيل ثوبها مستغفرا ، ولكنها قالت فى حزم :

ـ سنثأر لمقتل الجاويش .. نفذوا الأمر .

وفى اللحظة التـــالية كان الجيش الجرار يعـــود

ادراجه فى موكب حزين ، حاملا راس قائده ، فى حين صاحت (مجيدة) بجيش (جافيت) :

ــ هيا .. سنواصل سيرنا نحو القصر .

بدت كأحسن ما تبدو الملكة ، وهى تتقدم الجيش الصغير ، فى طريقها إلى القصر ..

ولكن فجأة حدث ما لم يكن فى الحسبان ..

لقد ارتد إلينا جيش الألف رجل ..

ارتد مقاتلا ..

* * *

تقول الأمثال إن الشدائد تبرز الرجال ..

وهذا ما حدث بالضبط ..

لقد كان جيش (جوشيا) ضعف تعداد جيش (جافيت) ، ولكن رجال هذا الأخير كانوا من خيرة الرجال ، ولقد تجلت شجاعتهم واستعداداتهم القتالية على الفور ..

ودار القتال حامى الوطيس لنصف الساعة فقط ، وبعدها انطلق من تبقى من جيش (جوشيا) يولى الأدبار ، وقد فقدوا نصف رجالهم ، فى حين لم يفقد جيش (جافيت) سوى خمسين رجلا فحسب ..

ودخلنا القصر الملكى مع الفجر دخول الظافرين ، ولكننا وجدنا بعض النيران تشتعل فيه ، فأسرعنا نطفئها ، حتى هدأت الأمور مع مشرق الشمس ..
وعادت الملكة إلى عرشها ..

* * *

كنت أتحدث مع ولدى (رودريك) فى الصباح التالى ، عندما جاء (جافيت) يدعونا لمقابلة سليلة الملوك ، فأسرعنا إليها ، واستقبلتنا فى صوت حزين أسف ، وهى تقول :

ـــ عبر أحد السهام نافذة حجرتى فى الصباح ، حاملا رسالة من عمى (جوشيا) ، يقول فيها : « فلتسلم (أم النجاشى) لنا ضيوفها البيض ، الذين أفسدوا عقلها ، ودفعوها إلى إراقة دماء شعبها ، وأن تسلمنا معهم جيش (جافيت) ، حتى نعفو عنها وعن الشعب ، ونتخذها زوجة لنا ، وإلا فسنعمل سيوفنا فى رقاب الجميع بلا رحمة » .

ثم رفعت رأسها إلينا ، وسألت :

ـــ ما رأيكم ؟

قال الكابتن :

ـ إننا بين المطرقة والسندان فى الواقع ، فإما ان يهاجمنا (جوشيا) وأعوانه ، أو يحاصروننا حتى نموت جوعا .

غمغمت فى شحوب :

ـ لقد نسيت أحد شروط هذا الفاجر يا كابتن .

واشارت إلى الفقرة التى يطلب فيها (جوشيا) الزواج منها ، ثم اعتدلت قائلة ، وهى تبرز خطابا مكتوبا :

ـ على اية حال ، لقد اجبت خطاب (جوشيا) بالفعل .

وراحت تقرأ :

ـ « يا شعبى الثـائر ورعيتى المتمـردة .. سلمونى عمى (جوشيا) وأعضـاء المجلس الذين تمردوا على حكمى ، فاحاكمهم واعفو عن الآخرين ، وإلا فإنه مع اكتمال القمر سيقع لبلاد (المور) ما وقع لبلاد (هرمق) ، وهذا ما هبـط به الوحى على ، ولتعلموا ان املكم الوحيد فى مليكتكم ، وضيوفهـا البيض » .

سألتها فى دهشة :

ـ ماذا تعنين بالوحى الذى هبط عليك ؟

اجابتنى فى هدوء :

ــ لقد غرقت فى نوم عميق مع الفجر ، وشاهدت فى نومى امرأة سمراء ، مهيبة وقور ، عرفت فيهـا جـدتى (بلقيس) ، التى تُطلعت إلى فى مزيج من الحب والأسى، ثم ازاحت من أمامى ستار المستقبل ، فرايت البدر يتوسط السماء ، وتحته بلاد (المور) اطلالا ، وقد اكتظت شوارعها بالقتلى .

تمتم الأستاذ (هيجز) :

ــ إنها مجرد نبوءة عبرانية قديمة .

فوجئت بولدى (رودريك) يقول :

ــ لقد انتهى عهد (الاباتى) .

التفتنا إليه جميعـا فى دهشـة ، فاستطرد فى جدية :

ــ لقد علمنى كاهن قديم تفسير الأحلام ، وهذا الحلم يعنى نهـاية شعب (الاباتى) ، مع اكتمال القمر .

أما الكابتن ، فقد واجه (مجيدة) ، قائلا فى قلق :

ـ هل تعلمين ان جوابك على رسـالة عمك ، يعنى إشعال حرب غير متكافئة ؟

اجـابته فى هدوء ، وهى تتطلع إلى حشـود (الاباتى) ، فى الميدان المواجه لقصرها :

ـ من يعلم كيف تنتهى هذه الحرب ؟

وبدا قولها اقرب إلى الصواب ..

نعم .. من يعلم ؟..

❋ ❋ ❋

١٢ - الهزيمـة ..

لم تكن الحرب متكافئة بالفعل ، فجيش (جافيت) لا يعدو سدس حجم جيش (جوشيا) ، ثم ان المؤن فى القصر لم تكن تكفى إلا لثلاثة ايام فقط ، بالإضافة إلى ان ابواب القصر واثاثاته كانت مصنوعة فى الغالب من الخشب ، مما يجعل اشتعال الحرائق امرا متوقعا ميسورا ، وعلى الرغم من ذلك فقد رحنا نحكم المزاليج ، ونوزع الحراس على المنافذ والأبواب ..

وطيلة الأيام الثلاثة التالية ، حاول (الأباتى) اقتحام إحدى البوابات ، إلا اننا أصليناهم نيران مسدساتنا وبنادقنا ، وسهام رجال (جافيت) ، حتى ولوا هاربين ، وبعدها اكتفوا بمحاصرتنا ، حتى يغلبنا الجوع ، ونضطر إلى التسليم ..

وراودتنا فكرة أن نخرج إليهم ونقاتلهم ، وكان من رأى (جافيت) أن الموت فى ساحة المعركة أشرف منه على المشانق ، ولم يؤيد هذا القول إلا ذلك الجوع الذى نهش امعاءنا ، مع نفاد المؤن ، فاتخذنا قرارا بالخروج لقتال (الأباتى) فى الصباح التالى ، مهما كانت النتائج ..

ولكن القدر لم يمهلنا لنفعل ..

لم تكد تشرق شمس الصباح التالى ، حتى بدا لنا ان سيلا من الشهب يسقط على القصر ، من قمة الصخرة المشرفة عليه ، فهتف الكابتن :

— يا إلهى !.. اى شهب هذه ؟

ثم لم يلبث ان صاح ملتاعا :

— رباه !! إنها اسهم مشتعلة .. اقرع ناقوس الخطر يا (آدمز) .

وهوت الأسهم المشتعلة على القصر ، وراحت النيران تندلع فى كل ركن من القصر ، واصابنا ذعر هائل ، ونحن نعدو من بقعة إلى بقعة ، وكلما اطفأنا ركنا اشتعل آخر ، واصابت النيران بعض الرجال ، فراحوا يعدون فى الم ورعب ، كجمرات ملتهبة حية ، وراحت وصيفات الملكة يصرخن ويعولن فى رعب قاتل ، وارتفع صوت (جوشيا) من الخارج ، يهتف برجاله :

— اقتلوا من تشاءون ، ولكن الويل كل الويل لن يمس شعرة واحدة من راس سليلة الملوك .

هوت الضربات على الأبواب فى عنف ، وصاحت

الملكة بوصيفاتها ، تطلب منهن الفرار بأنفسهن ، فأطعنها فى ارتياح ، فى حين أمسك الكابتن بيد الملكة ، وهتف :

— تعالوا .

صاحت فى عناد :

— لا .. إننى أفضل الاحتراق حية ، على تسليم نفسى لـ (جوشيا) .

صاح بها :

— لن نذهب إلى (جوشيا) .. سنذهب إلى الكهف ، حيث مقابر ملوك (الأباتى) ، ففى نفق ضيق كهذا يستطيع أربعة رجال ببنادقهم صد آلاف (الأباتى) .. هيا يا (جافيت) .

انطلقنا إلى الكهف ، وعبرنا مغارة مقابر الملوك ، وأشار (جافيت) إلى السرداب الذى يربط ما بين الكهف ومغارة الأسود ، وقال :

— يمكننا أن نفر من هنا .

اعترض (هيجز) فى خوف :

— وما الفائدة ؟.. سنفر من (الأباتى) لنقع فى أيدى (الفنج) .

هتف ولدى (رودريك) :

ـ لا .. لقد رحل كل (الفنج) عن (هرمق) .

وافقنا على اقتراح (جافيت) ، بناء على راى (رودريك) ، ولكن هيهات ..

كان السرداب قد انسد تماما بالأحجار والصخور ، من جراء الانفجار ، ولم يكن عددنا أو حالنا يصلح لرفعها ، فأصابنا اليأس مرة أخرى ، وخاصة مع ضعف المشاعل ، وقرب انطفاء نيرانها ..

ثم لفظت المشاعل أنفاسها الأخيرة ، وتركتنا فى ظلام دامس ، والجوع ينهش أمعاءنا ..

وفجأة هتف (جافيت) ، وهو يجثو عند قدمى الملكة :

ـ أيا سليلة الملوك .. عبدك (جافيت) شجاع صنديد فى ضوء الشمس وتحت النجوم ، ولكنه هنا ، وسط الجوع والظلام ، أشد جبنا من (جوشيا) .. أرجوك يا مليكتى ، دعينا نعد إلى النور ، ونسلم أنفسنا للأمير ، فقد يعفو عنا ، ويحفظ حياتنا .

هزت (مجيدة) رأسها فى صمت ، فاتجه (جافيت) إلى الكابتن ، مستطردا :

ـ اترضى يا سيدى ان تكون سبب مصرع سليلة الملوك جوعا وعطشا ؟

الا يدفعك حبك لها إلى صونها من الهلاك ؟

اجابه الكابتن فى صوت ضعيف ، بدا وكانه ينبعث من احد القبور :

ـ انت على حق يا (جافيت) .. اصغى إليه يا (مجيدة) ، إننـــا سنموت بيد الجـــوع او بايدى (الأباتى) ، اما انت فخروجك من هنا يعنى نجاتك حتما ؛ لأن (جوشيا) لن يمسك بسوء .. هيـــا يا (مجيدة) .. ارحلى .. ارحلى لتنجى بعمرك .

اجابته فى انفعـــال ، على الرغم من ضعفهـــا وتهالكها :

ـ لا يا (أورم) .. إننى افضـــل المـــوت على الزواج من ذلك الفاسق (جوشـــيا) .. وليمنحنى القدر فرصة ان اموت إلى جوارك .. مر (جافيت) بالتزام الصمت ، أو اطرده من هنا ، حتى لا يزعجنى مرة اخرى .

ولم يعد (جافيت) إلى هذا الحديث بعدها .. ابدا ..

* * *

قضـــينا فى ذلك الكهف يومين كـــاملين ، نهش خلالهما الجوع أمعاءنا ، ولم يكف ذلك القدر الضئيل من الميـــاه لمنحنا شـــيئا من الطاقة ، ولقد اختفى (جانيت) ، ولكن ذلك لم يلفت انتباهنا كثيرا ، فقد ادركنا انه قد ذهب ليموت فى مكان ما ، وشعرنا أن الموت يحيط بنا كلنا مثله ، وراح الضعف يحيط بى فى شدة ، واذكر ان آخـــر عود ثقاب اشعلته قـــد جعلنى ارى الأستاذ (هيجز) ، وهو يخط بضـــع كلمات على قبعته ، وهو يظنها مفكرته ، وقد ارتدى منظاره ، على الرغم من الظلمة ، وإلى جواره وقف (رودريك) ينشـــد بالعربية والإنجليزية ، وعلى مقربـــة منهمـــا رايت (مجيدة) تجلس إلى جوار (أورم) ، وقـــد احاطها هو بذراعيه فى حنـــان ، واسندت هى راسها إلى كتفه ..

ثم غمر وجهى ضوء قوى ..

وفقدت الوعى ..

وفجاة استيقظت ..

استيقظت لأجد نفسى فى حجرة كبيرة ، راقدا على فراش وثير ، وإلى جوارى يرقد (هيجز) والكابتن و (رودريك) ..

ثم دخل خدم (الأباتى) يحملون الطعام ، وراحوا يطعموننا ، ثم تركونا نعود إلى النوم ..

وتساءلت عما يعنيه هذا ..

اهو حلم ؟..

اهو امل بالنجاة ؟..

ولكن لا ..

إن مذاق الحساء واللحم ما زال فى فمى ، وبين اسنانى ..

إنها حقيقة إذن ..

لقد نجونا ..

لقد اخرجونا من الكهف ، وحملونـــا إلى هـــذا المكان !.

ولكن من فعل هذا ؟..

ولمـــاذا ؟..

لمـــاذا ابقوا على حياتنا ؟..

لم اجد جوابا لكل هذه الأسئلة ، ولم احاول حتى

أن ألقيها على خـدم (الأباتى) ، الذى اطعموننا الحساء واللحم خمس مرات فى يوم واحـد ، حتى استعدنا عافيتنـا ، ورأيت (هيجز) يجلس على فراشه ، ويحدق فى وجهى ، قائلا

ــ أنجونا ، أم أنه يوم الحساب ؟

أجبته فى خفوت :

ــ الأرجح أنه يوم الحساب .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ــ لو أننا وقعنا فى أيدى (الأباتى) ، فالجواب الأصح هو أننا فى الجحيم .

ثم هتف بالكابتن :

ــ استيقظ يا (أورم) .. لقد خرجنا من الكهف على أية حال .

نهض الكابتن ، وتطلع إلينا لحظة ، ثم سألنا :

ــ أين (مجيدة) ؟

لم نملك جوابا لسؤاله ، ولكن (رودريك) أجاب :

– لقد حملونا إلى خارج الكهف ، وكان (جانيت) معهم .. ولقد رايتهم يحملون سليلة الملوك إلى جهة أخرى .

حاولنا هذه المرة أن نلقى بعض الأسئلة على الخدم ، ولكنهم رفضوا رفضا باتا منحنا اية أجوبة ، ولقد سمعت أحدهم يهمس لزميله ، وهما يغادران الحجرة :

– متى تنتهى خدمتنا لهؤلاء الأوغاد البيض ؟

أجابه زميله :

– سيقرر المجلس هذا ، فى غضون يوم أو يومين .

وعند الغروب سمعنا أصواتا تهتف أسفل النافذة :

– أعطونا الغرباء .. نريد الغرباء .. لقد سئمنا الانتظار .

فغمغم الأستاذ (هيجز) :

– من المقلاة إلى النار مرة ثانية .

وبدا لى قوله اقرب ما يكون إلى الصواب ..

لقد نجونا من الموت فى الكهف ، لنقع فى ايدى من يمقتوننا اشد المقت ..

ولقد بقينا فى هذا الكهف ثلاثة ايام ، نعمنا فيهـا باطايب الطعام والشراب ، كالنعاج التى يتم تسمينها للذبح ، وفى اليـوم الرابع ، وبعـد ان انتهينـا من تناول طعام الافطار ، اقتحم عدد من الجنـود حجرتنا ، بقيادة ضابط غليظ خشن الطباع ، اخبرنا فى شماتة اننـا سنذهب إلى المجلس ، لنحاكم امام سليلة الملوك ، بتهمة قتل عدد من الرعية ..

وذهبنا ونحن نجهل مصيرنا هذه المرة ..

نجهله تماما ..

* * *

١٣ ـ المحاكمة ..

مضينا إلى المجلس وسط حلقة من الجند ، تعمل على حمايتنا من غضب الشعب ، حيث راحت النساء يلوحن بقبضاتهن فى وجوهنا ، ويبصقن علينا ، فى حين رشقنا الأطفال بالحجارة ، ووجوه الجميع تحمل كل الكراهية والتشفى والبغض ، فسألنى (رودريك) ، وهو يدلك كتفه ، بعد إصابته بحجر :

ـ لما يكرهونكم على هذا النحو يا والدى ، على الرغم من كل ما أديتم لهم من خدمات ؟

أجبته فى حزن :

ـ لأن الملكة تحب أحدنا يا ولدى ، ولأنهم يكرهون الأجانب ، وككل الجبناء ، سيسعون للانتقام منا ، بعد أن أمنوا شر (الفنج) ، وأصبحوا بلا حاجة لوجودنا .

غمغم فى غضب :

ـ كم أتمنى أن يدرك (الفنج) خطاهم ، ويعودا للثأر من هؤلاء الجبناء .

بلغنـــا مجلس الملكة الكبير فى صــعوبة ، وبعد أن أصــابنا بعض الحصى والحجــارة واخترقنـــا صـفوف وجموع النبــلاء والكهنــة والقــادة ، الذين راحوا يسخرون منا ، ويعبرون عن شماتتهم ومقتهم ، حتى وضعنا الحراس فى المكان المخصص للمتهمين ، إلى يسار عرش (مجيدة) ، التى أخفى نقابها الموشى بالنجوم الفضــية وجهها ، وسمعت الكابتن يتنهد فى ارتياح ، وهو يقول :

ــ حمداً لله .. إنها بخير .

قال (هيجز) فى حنق :

ــ كان ينبغى أن تتخذ مكانها إلى جوارنا ، فى قفص الاتهام ، لا فوق العرش .

أشار إليه الكابتن بالصمت ، ونهض ممثل الاتهام يتهمنا بأننا قد انتهزنا فرصة وجودنـــا على رأس جيش (المور) ؛ لنثير حربا أهلية ، ونشعل نيران الفتنة وسط شعب (الأباتى)، مما تسبب فى إراقة دماء العديد من الأهالى بأيدى بعضهم البعض ، إلى جوار من قتلناهم بأيدينا ، ثم اختطفنا الملكة ، وهربنا إلى مدينة الأرواح تحت الأرض ، لولا أن كان بيننا (جانيت) ، أحد رجالهم المخلصين ، الذى كشف لهم عن مخبئنا ..

وانتهى ممثل الاتهام من حديثه ، فسألنا القاضى :
ـ هل هذا صحيح ؟

نهض الكابتن نيابة عنا ، وقال :

ـ ليس هناك مجال لاتهامنا بقتل من سقطوا فى ساحة القتال ، فقد كنا ندافع عن حياتنا ، ثم إننا لم نبدأ تلك الحرب الأهلية ، بل بدأها أميركم .

سرت همهمة غاضبة وسط الحضـــور ، ولكن الكابتن تجاهلهـــا تماما ، وهو يواصـــل حديثه فى شجاعة :

ـ أما عن باقى الاتهـــامات ، فسأترك لسليلة الملوك وحدها التحدث عنها ؛ لأنهـــا تعرف حقيقة ما حدث .

صاح بعض المتفرجين :

ـ لقد اعترفوا بجريمة القتل .. أصدروا الحكم بإعدامهم فورا .

نهض القضـــاة من مجالسهم ، والتفـــوا حول (مجيدة) ، يشاورونها فى الأمر ، وقضوا حولهـــا بعض الوقت ، ثم عـــادوا إلى مقاعدهم ، فرفعت (مجيدة) يدها ، وساد المكان صمت تام ، قبل أن تقطعه هى ، قائلة فى برود :

ـ لقد اعترفتم أيها الغرباء بإثارة حرب أهلية ، أهدرت فيهـا دماء وأرواح بريئة طاهرة ، وهـذا لا يحتاج إلى أدلة أو براهين ، فدمـوع اليتـامى والأرامل ودماء الشهداء تشهد بذلك ، ثم تأتي جريمة اختطاف ، واحتجازي في أرض الأرواح ، لتضمنوا سلامتكم .

صعقنا حديثها ، وعقد السنتنا في حلوقنا من فرط الذهول ، في حين تابعت هي بنفس اللهجة الباردة :

ـ إنكم تستحقون ما هو شر من الموت ، بسبب هذه الجرائم ، ولكننا سنذكر لكم تدميركم لمعبـود (الفنج) ، وسنعفو عنكم بالنسبة للإعدام ، ولكنني آمركم بالرحيل اليوم إلى بلادكم ، بما لكم من متاع ، وبما جلبتموه معكم من مقبـرة الملوك ، والويل لكم لو عدتم إلى هذه البلاد ، ولتحمدوا الله ؛ لأنكم وجدتم شعبنا كريمـا ، أصر على التمسك بالاتفـاق بين مجلسـه وبين جماعة من البيض الغربـاء ، حتى لا يوصم بالتنـازل عن شرفه يومـا .. ارحلوا ، ولا تدعونا نرى وجوهكم بعداليوم .

هتف البعض مؤيدين ، وصـاح البعض الآخـر غاضبا :

ـ لا .. لا .. يجب أن يقتلوا .

اشارت (مجيدة) بيدها فى صرامة ، فعاد الصمت يسود المكان ، لتقول هى فى حزم :

ــ حذار أن يصمكم التـــاريخ بأنكم شعب من القساة الجبناء ، معدومى الشرف .. لقد دعونـــا حفنة من كلاب البيض لتصطاد لنا وحشا يحمل اسم (هرمق) ، ولقـــد نجحـــوا فى مهمتهم ، واحسنوا الصـــيد ، ويستحقون أن نبقى على حياتهم ، وأن نمنحهم كومة العظام التى ارتضوها أجرا لهم ، والتى يتصورون أنهم قد ربحوها بعرق الجبين .. وما قيمة حفنة من العظام عند شعب عظيم مثلكم ، لم يلوث أرضه بدماء كلاب بيض .

نقل حديثها الحماس إلى قلوب الجميع ، فارتفع هتاف هادر :

ــ فليرحلوا .. اربطوهم إلى ظهور الجمال ، وليرحلوا بعيدا .

قالت فى حزم :

ــ هـــذا ما سنفعله ، ولكن لـــدى كلمة لـــكم يا شعبى .. لقد تصور بعضكم أو ظن أننى أحب احد هؤلاء الكلاب البيض ، ولكنكم نسيتم أنه هناك نوع من الكلاب لا يعمل إلا إذا ربتنا على راســـه ،

وهذا ما فعلته مع أحد هؤلاء البيض ، فقد رحت أربت على راسه ؛ لأستغل علومه ومواهبه ، وأدواته الجهنمية ، التى هدمت معبود (الفنج) .. أتصورتم يا شعبى المجيد أن حفيدة (سليمان) و (بلقيس) ، وابنة الملوك والحكمة ، وزهرة (المور) ، يمكنها أن تهبط من عرشها ، وتمنح قلبها لغريب ضال ، جاء يسعى خلف كنوز الملك (سليمان) ؟ .. لا .. إننى أرثى لحال هذا الغريب، الذى تصور يوما أننى قد أحببته ، وادعوه فى الغد لحضور حفل زفاف إلى الرجل الذى وهبته نفسى .

ومدت يدها إلى (جوشيا) ، الذى انحنى يلثم أصابعها مزهوا فخورا ، وتمتم ببضع كلمات لم تبلغ مسامعنا ، وسط دوى القاعة بالهتاف والتصفيق ، إلى أن علا صوت الكابتن كل الأصوات ، وهو يقول :

ـــ لقد سمعنا كل شىء .

ران الصمت على القاعة إثر صيحته ، وتطلع إليه الجميع ، فانخفض صوته ، وهو يقول فى حزم بارد :

ـــ سمعنا حديثك يا سليلة الملوك ، ونشكر لك اعترافك بخدماتنا ، ومخاطرتنا بأرواحنا فى سبيل هدم معبود (الفنج) ، ونعترف بكرمك عندما تطلقين

سراحنـــا ، وتمنحيننـــا ما وعدت من مكافآت مقابل ذلك ، وهذا دليل على كرم شعب (الأباتى) ، الذى سنذكره دوما ، لو قدر لنا العودة إلى وطننــا ، ولكن لى رجاء أخير يا زهرة (المور) .

مالت بجسدها إلى الأمام ، وكأنما يهمها كثيرا أن تستمع إلى مطلبه ، فقال فى صوت قوى :

ـــ أريد أن أرى وجهك لآخر مرة ، دون نقاب ، لأتأكد من أن من أستمع إليهـا هى نفسـها سليلة الملوك ، لا امرأة أخرى متنكرة فى ثوبها وصوتها .

ران الصمت تماما بعد كلماته ، واتجهت العيون كلهـا إلى حيث تجلس (مجيدة) ، وكأنمـا تملكهم الشغف لمعرفة رد فعلها وجوابها ..

وفى بطء شديد ، رفعت (مجيدة) نقابها ..

وتراجع الكابتن فى دهشة ..

بل تراجعنا جميعا ..

لقد بدت لنا (مجيدة) أخرى ..

(مجيدة) الشـاحبة الذابلة ، وكأنهـا هيكل أو شبح امرأة ..

وأدركنا جميعا لحظتها سر موقفها النبيل ، ومدى معاناتها ، وهى تلعب ذلك الدور الهائل ، مضحية بنفسها فى سبيل إنقاذنا ..

وهنا سقط الكابتن ..

سقط مغشيا عليـــه ، وكانما لم يحتمل كل ذلك القدر من العواطف والانفعالات ..

وكادت (مجيدة) تهوى خلفه ، لولا ان تشبثت بذراعى عرشها ، وبذلت أقصى جهدها لتبدو هادئة ساكنة ، وهى تقول :

ــ لقد فقد وعيه لما لحقه من إهانات .. اتركوا لرفيقه الطبيب (آدمز) مهمة العناية به ، وعندما يستعيد وعيه أخرجوهم من (المور) ، وامنحوهم مؤن تكفى لأربعة ايام ، ولا يمسهم احد باذى ، حتى لا يقال إننا قد اطلقنا سراحهم لنقتلهم المــا وجوعا بعيدا عن ابوابنا .

ولوحت بيدها معلنة انتهاء المجلس ، ونهضت مغــادرة المكــان ، وخلفهــا كهنتهــا وقوادهــا ووزراؤها ..

وحمل بعض (الأبــاتى) الكابتن على محفــة ، وسمعت أحدهم يقول فى سخرية :

ــ انظروا إلى ذلك الكلب الأبيض ، الذى منى نفسه بالحصول على زهرة (المور) ، فلم يحصد سوى الندم والعار .. اظنه قد لقى حتفه كمدا .

شاركه الباقون سخريته وتهكمه وشماتته حتى

بلغنا سجننـــا ، فرحت أعمل على إنعاش الكابتن ، حتى استعاد وعيه ، وقال فى هدوء :

ــ لقد رأيتم ما حدث يا رفاق ، واستحلفكم بحق السماء ألا يذكر أحدكم (مجيدة) بسوء ، وألا يتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى .

وعدناه بتحقيق رغبته ، فى حين أشـــاح ولدى (رودريك) بوجهه ، وابتسم ابتسامة غامضة ، لم أفهم مغزاها لحظتها ، ولكننى لم أسأله ، بل اكتفيت بأن تناولنا جميعا الطعام ، ولم نكد ننتهى من تناوله حتى دخل ضابط من ضباط (الأباتى) إلى حجرتنا ، يأمرنا بالاستعداد للرحيل ، وخلفه عدد من الجنود يلقون إلينا بملابسنا ومعاطف تقينا شر البرد القارس ليـــلا ..

وأبدلنا بثيابنا ثيابا نظيفة ، ثم خرجنا إلى حيث تنتظرنا بعض الجمال ، أدركت عنـــدما وقع بصرى عليها أنها من أجود أنواع الجمال ، وقال الضابط فى صرامة :

ــ هيا أيها الغرباء .. راجعوا أمتعتكم ، حتى لا تدعوا أننا قد سرقنا منكم شيئا .. ها هى ذخيرتكم وأسلحتكم النارية ، ولكننا لن نسلمها لكم قبل نهاية الطريق ، وستتبعكم جمال تحمل صناديق العظام

التى طلبتموها اجرا ، واخرى تحوى بعض الآثار ، التى طلبها (هيجز) .. ولقد امرت الملكة الا تفتحوا هذه الصناديق قبل بلوغكم (مصر) ، حتى لا تجادلوا فى امـــر المكافاة او قيمتهـــا ، والجمل الأخير يحمل طعامكم .. هيا .. لقد حان موعد رحيلكم .

امتطينا صهوات الجياد ، ورافقنا الحراس حتى نهاية الطـــريق ، حيث كانت تنتظرنـــا جماعة من الناقمين ، الذين راحوا يمطروننا باقذع الألفـــاظ ، حتى اقصاهم الجند عنا ، والقى أحد هؤلاء الناقمين علينا بيضة فاسدة ، تحطمت على أنف (هيجز) ، وسالت على وجهه ، فراح يسب ساخطا ناقما ، فى حين انفجرت انا ضاحكا للمشهد ، وبددت ضحكته جو الكآبة المخيم على الموقف ، ثم لم تلبث ان اختنقت فى حلقى ، عنـــدما وقع بصرى على رجل فى ابهى حلله ، يمتطى جوادا اشهب ، وينتظرنـــا ممتشقا سيفه ، وسط ثلة من رجاله ..

كان اكثر شخص يبغضنا فى هذا العالم ..

الأمير (جوشيا) ..

***

١٤ ـ الختـام ..

كان أول ما جال بخاطرنا ، فى تلك اللحظة ، هو أن (جوشيا) يضمر لنا شرا ، وأنه ما وقف ينتظرنا خارج أبواب (المور) ، إلا ليمزقنا إربا مع جنوده ، إلا أنه اكتفى بابتسامة ســاخرة ، وهو ينحنى فى تهكم ، قائلا :

ــ الوداع أيها الضيوف الأعزاء .. أرجو لكم رحلة طيبة آمنة .

ثم التفت إلى الكابتن ، واستطرد :

ــ أما أنت أيها الوسيم ، فسليلة الملوك تبلغك أنها تأسف ؛ لأنك لن تشاهد حفل زفافها إلى الليلة ، فلقـد خشيت أن يثور قومهـا لرؤيتك ، فيقتلوك وتسيل دماؤك ليلة عرسنا ، ولقد أرسلتنى لأخبرك أنها تتمنى لو كنت قد وعيت الدرس ، حتى لا تتصور لاحقا أن عطف صاحبة المصلحة عليك حب ، فتفكر فى عبارتهـا ، واشرب الليلة نخب زهـرة (المور) وزوجها الأمير (جوشيا) .

واجهه الكابتن فى برود ، وقال :

ــ من يدرى على أى أمـر تشرق شمس الغـد يا (جوشيا) .. العبـرة دائمـا بخواتم الأمور ،

لا ببداياتها ، وثق انه من عاش بالسيف مات به ، وأن حياتك التى بنيتها على الغدر ستنتهى بغدر ، وأن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا ، وكان ينبغى ان تطلب منى الصفح عن شماتتك وشتائمك ، التى انهلت بها على رءوس من لا يملكون القوة على الثأر والانتقام .

قال هذا وواصل طريقه ونحن خلفه ، فى حين سمعنا (جوشيا) من خلفنا يسأل أحد رجاله فى دهشة :

ـ ما الذى يعنيه هذا الخنزير ؟ .

ولكننا لم نتوقف ، وواصلنا السير حتى ابتعدنا عن (جوشيا) ورجاله ، وأبواب (المور) ، وغابت كلها عن أبصارنا ، فإذا بالأستاذ (هيجز) ينفجر ضاحكا ، على نحو أثار دهشتنا ، فسأله الكابتن :

ـ وماذا هناك ؟

أوقف (هيجز) جمله ، وهبط من على ظهره ، واندفع إلى أحد الجمال المحمله بالصناديق ، وهو يهتف :

ـ لا تسأل وأنت تجلس هناك .. هلم وساعدنى لنفتح احد هذه الصناديق .

قال الكابتن فى حذر :
ـ ولكن أوامر الملكة ..
قاطعه فى انفعال :
ـ دعك من هذا .. هيا وعاونى .
عاوناه جميعا على إنزال أحد الصناديق الثقيلة ، وهتف هو فى انفعال ، وهو يزيل رتاج الصندوق :
ـ لن يمكنكم أن تتصوروا حجم المكافأة التى حصلنا عليها ، والتى انتقيتها بنفسى من مقابر ملوك (المور) .
فتحنا الصندوق ، وتراجعنا مبهورين ..
كانت هنـــاك أكـــوام من الذهب والمجوهرات والتحف الأثرية والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ..
والتمعت التحف والمجوهـــرات تحت أشـــعة الشمس الآفلة ، وهتف (هيجز) ، وهو يشير إلى الصناديق التى تحملها الجمال الأخرى :
ـ كل صندوق من هذه يحمل نفس الأشياء .. لقد منحتنا الملكة كنزا ، مقابل ما فعلنا .. منحتنا كنوز الملك (سليمان) .
قلت فى انفعال ، وأنا أتطلع إلى الكنز :
ـ لا تنســـوا نصيب الجاويش (كويك) .. سيحصل على عشرة فى المـــائة من كنـــوز الملك

(سليمان) ، وسنقدمها إلى أبناء شقيقه الراحل ، و . . . .

وقع بصرى فى تلك اللحظة على وجه الكابتن ، الذى بدا باردا ، خاليـــا من الانفعالات ، فبترت عبارتى ؛ لأسأله فى دهشـة :

ـ الا يسعدك الحصـــول على كنــوز الملك (سليمان) ؟

أطلق من اعماق صدره تنهيدة حارة ، وهـــز راسه وكتفيه ، وهو يقول فى أسف :

ـ ما فائدتها ، وقد خسرت الكنز الحقيقى ؟

ثم أدار ظهـــره لنا ، وانصرف متجاهلا أكداس الذهب والمجوهرات ..

لحظتها علمنا ما الذى يقصده بالكنز الحقيقى ، وامتلأت رءوسنا بصورة واحدة ..

صورة الملكة ..

***

مضت بنا القافلة فى الصحراء ، وقد تقدمتها أنا و (هيجز) ؛ لخبرتنا بدروب الصحارى ، وســار الكابتن فى الوســـط ، فى حين بقى (رودريك) فى المؤخرة ، لسمعه الحاد ، وخبرته فى كبح جمـــاح الجمال وقيادتها ..

وعبرنا مدينة (هرمق) العظيمة ، وقد خلت من سكانها ، وصارت أطلالا مهجورة ، على الرغم من ان حقولها لا تزال مزهرة يانعة ، وواصلنا سيرنا حتى بلغنا قرية مهجورة ، فحططنا فيها الرحال ، ورحنا نتناول طعامنا ، مع مغيب الشمس ..

ودار بيننا نقاش حول الطـريق الذى ينبغى أن نتخـذه ، أننطلق إلى الشـمال ، أم نسـلك الطريق القديم ، بعد أن جفت مستنقعاته ، وخرج (رودريك) لاستطلاع المنطقة ، ثم عاد ليخبرنا أنه قد وجد آثارا تشير إلى أن جيشا عظيما من (الفنج) قد غادر المدينـة منـذ ما لا يزيد على اثنتى عشرة ساعة على الأكثر ..

ولقد اقلقنا هذا كثيرا ، ورحنا نتساءل عما يعنيه هذا ، حتى غلبنا النوم ، فاستسلمنا إليه فى عمق ..

وقبيل الفجر ايقظنى (رودريك) ، وهو يقول :

ـ معذرة لإزعاجك يا أبى ، ولكن هناك ظاهرة فى السماء ، احب أن تشاهدها .

استيقظت وتطلعت إلى الشفق ، حيث (المور) ، وهالنى ان اجد السماء هنـاك مضاءة ، وكاننا فى وسط النهار ، فاسرعت إلى الكابتن ، الذى لم يذق النوم ، وهو يعلم أن حبيبته ستزف لابشـع رجل

عرفه فى حياته ، فهب يحدق فى المشهد بدوره ، ثم قال فى صوت هادىء :

ـ إن (المور) تحترق .

هتف (رودريك) فى انفعال :

ـ لا ريب أن (الفنج) قد تسللوا عبر الطريق السرى إلى (المور) ، ولا شك أن (بارونج) قد ذبح (جوشيا) ، أو قتله شر قتلة ، قبل أن تزف إليه سليلة الملوك .

غامت عينا (أورم) بحزن عميق ، دون أن ينبس ببنت شفه ، فى حين غمغمت أنا مشفقا :

ـ يالملكة البائسة !! ترى ماذا أصابها ؟

هز (هيجز) رأسه ، وقال :

ـ من يدرى ؟ .. إننى معجب حقا بتلك الفاتنة .. يا للبائسة !.

وفجأة هتف (رودريك) :

ـ هناك من يقتفى أثرنا .

أسرعنا إلى حيث يشير ، ووقع بصرنا على شبح ملثم ، يعتلى صهوة جواد متعب ، فرفع (هيجز) بندقيته إليه ، وقال فى صرامة :

ـ من أنت ؟

هبط الشبح عن جواده ، وبدا لنا كصبى صغير ، اتجه نحو الكابتن ، وقال فى صوت أجش :

ــ إننى رسول أحمل رسالة للكابتن .

وناول الكابتن شيئا ، ورأيت الكابتن يحدق فى هذا الشىء مبهوتا ، فألقيت نظرة على راحته ، وهتفت :

ــ رباه !!.. إنه الخاتم .. خاتم (بلقيس) .

وصاح الكابتن فى جزع :

ــ من أين أتيت بهذا الخاتم أيها الصبى ؟ وماذا أصاب صاحبته ؟

أجابه الصبى الملثم :

ــ لقد ماتت ابنة الملوك التى عرفتها ، ولم تعد بها حاجة لهذا الخاتم .

امتقع وجـــه الكـــابتن ، وتراجع كالمصعوق ، وانتقلت صاعقته إلينا ، عندما أردف الصبى بصوت مألوف لآذاننا :

ــ ولكن (مجيدة) التى أحبتك ما زالت على قيد الحياة .

وانتزع الصبى اللثام ، وشهقنا جميعا ..

لقد كان (مجيدة) نفسها ، التى رحنا نتطلع إليها



وانتزع الصبى اللثام ، وشهقنا جميعًا ..
لقد كان (مجيدة) نفسها ، التى رحنا نتطلع إليها ..

فى ذهول وصمت ، قبل ان ترنو هى إلى حبيبها ، وتضيف :

ـ لم تعد بى حاجة إلى الخاتم ، ما دمت سابقى إلى جوارك .

ضمها (أورم) إلى صدره فى لهفة وسعادة واشتياق ..

الآن فقط نال الكنز الحقيقى ..

كنز الملك (سليمان) ..

[تمت بحمد الله]

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

كنوز الملك سليمان



رائعة الأديب البريطانى (رايدار هاجارد) ، التى يقفز فيها عبر عالم الخيال ، إلى بلاد غامضة مجهولة ، وسط أدغال أفريقيا ، ليواجه مع أبطاله الأهوال والأحداث المثيرة ، فى سبيل بلوغ تلك الكنوز الأسطورية .. (كنوز الملك سليمان) .

العدد القادم : دكتور نو

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع